

يوسف السباعي



اثنا عشر  
رجلاً



ج. ط.



# إِثْنَا عَشَرَ رَجُلًا

يوسف السباعي

الناشر  
مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - البجالة



# الإهداء

إلى نابغة الشرق وعبقري الجيل :

الأستاذ توفيق الحكيم

أهدى كتابي هذا . . .

وأنا الذي أهدى أقل بهارة  
حسنا لأحسن روضة منفاف

« يوسف السباعي »

---

★ الإهداء بلا مقابل ، ليطمئن قلب الكاتب الكبير ، ويقبل الإهداء .



## مقدمة

كثيرا ما اصائل نفسي وانا اتأمل ابنتى وبيسا ، ماذا ستقول عن ابيها عندما تبلغ سن النضج وتقرأ هذه القصص الملائى بالحب ٠٠ وكيف استطيع أنا ، كآب ، أن أردعها أو أزجرها أو أنهلها عن حب تساق اليه اذا كانت ثلاثة أرياع قصصى تتلخص فى أن « كل شيء ما خلا الحب عبث » .

هذه ولا شك مشكلة عويصة ، فما أظن أننى استطيع أن أنكر ذلك الرونق الذى أضفيتها على الحب فى كتبى ، فمن العسير على الانسان أن ينكر ماضيه ٠٠ وخاصة اذا شهدت عليه كتب مطبوعة . حقيقة أن كثيرا من الساسة تعودوا مثل هذا الانكار ولكنى لم أصل بعد من الصفاقة الى مرتبة هؤلاء الساسة ٠٠ فتلك موهبة لا يهبها الله الا للساسة من عباده ٠٠ وعلى ذلك فلا أظننى الا مقرا بكل ما كتبت ، معترفا بكل ما قلت من أن الحب لا خيرة فيه بل هو من الأشياء التى يساق اليها الانسان اضطرارا ، وأن المرء ليصاب به كما يصاب بمرض من الأمراض ، وأن القلوب عمياء ٠٠ ما خلق الله فى الانسان أكثر منها حمقا وخرقا ٠٠ تندفع فى الحب بلا روية ولا تفكير ٠٠ ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها

أجل لا أظننى أستطيع أن أنكر كل هذا الذى كتبته أو أنسبه الى  
 انسان آخر ، أو ادعى أنى لم أكن بكامل قوائى العقلية وأنا أكتب  
 ما كتبت عن الحب ٠٠ ولكن يبدو لى أننى قد أجد لى خلاصاً  
 بالحوارة والمداورة ، ويخيل الى أن هذا الحديث الذى دار بينى وبين  
 احدى بطلات قصصى قد يدور بينى وبين ابنتى فى يوم من الأيام اذا  
 ما حاولت أن أنكر عليها حبا لا أقره كأب ٠٠ حبا أجد فيه ، وأنا  
 الرجل العاقل الحصيف الذى سأكونه وقتذاك ، نوعا من الطيش  
 والنزق واندفاع الشباب ٠٠ حبا أخشى ألا يهيبه لها أسباب الهناء  
 والسعادة التى أتمناها لها فى مستقبل حياتها .

ويخيل الى أنها ستقول لى :

— حتى أنت ؟ أنت الذى تضع الحب فى كتابتك فى المرتبة الأولى  
 من مراتب الحياة ٠٠ تنكر على حبنى ؟ !!

فأطرق ، ثم أجيبها فى قودة :

— يا بنيتى العزبة ٠٠٠ أنا أقول ذلك فى الكتابة فقط ، فنحن  
 نحاول بالكتابة أن نهيبه لأنفسنا ناحية من الارضاء نفتقدها فى  
 الحياة ، نجدها قد انهارت وتطايرت كدخان فى الهواء ٠٠ فحبك هذا  
 قد يصلح لأن يكون موضوعا لقصة ناجحة ٠٠ أما أن نجعل منه  
 حقيقة واقعة نفرضها على حياتنا ، فلا شك أننا سنصاب منه بحسرة  
 وندم ٠٠ اننا لكى ننجح فى الكتابة يجب أن نحكم قلوبنا ، ولكن لكى  
 نتجح فى الحياة يجب أن نحكم عقولنا .

وبالطبع لن تسمع لنصيحتى ٠٠ بل من يدرى قد تذكرنى بقولى :  
 « اياك ونصح العشاق ٠٠ ان فى أذانهم صمما لا يسمح بدخول  
 النصيحة أو هو يسمح بها ثم يطردها من الأذن الأخرى » .

ان كل ما أملكه نحوك يا بنيتى ٠٠ هو أن أدعو الله أن يوفقك الى



الزوج الصالح الذى يهيب لك حياة راضية .. تلك هى خير ما يمكن  
أن يتمتعنا انسان لامرأة .

انى أنكر ما قالته أمك ذات مرة من أنها لا تتمنى لك أكثر من أن  
تتزوجى انسانا مثلى .

ولقد اعتبرت قولها خير ما نلته فى حياتى من مديح وثناء ، وقد  
أكون لا أستحق شيئا منه ، وقد تكون مذبوعة فى .. وقد أكون لديها  
« كالكعكة فى يد اليتيم » .. ولكن ماذا تهمنى ما دامت ترانى خير  
الرجال .. وما دامت راضية عنى الرضا الذى يجعلها تتمنى لك  
.. وأنت أعز من لديها – انسانا مثلى .

لست أدري ما الذى جعلنى أشغل بك مقدمة كتابى .. ولكنها  
كلمة قد تسرك فى زمن ما .. عندما تبلغين مبلغ الأنوثة .. وتقبلين  
على قراءة هذا الكتاب الذى حوى بين ضفتيه اثنى عشر رجلا من  
مختلف أنواع الرجال ، فتعجمين أعوادهم ، وتقبلينهم بين كفيك  
وتستعرضينهم الواحد تلو الآخر .. ثم تدرسينهم دراسة جيدة ..  
وتعرفين الكثير عن أنواع الرجال .. دون أن يصيبك شيء من  
شُرورهم .

هذا الكتاب يا بنيتى .. نور بلا حر .. وشهد بلا ابر .

« يوسف السباعى »



## رجل وضلال

كثيرا ما سألت نفسي ٠٠ هل تقاس قيمة الناس حسب مراكزهم  
التي يشغلونها في الحياة ؟ وهل نستطيع أن نقدر مواهبهم وكفاياتهم  
وأفضالهم ٠٠ بمقدار ما يبلغونه في دنياهم ؟

وهل يحق لنا أن نقول ان فلانا قد وصل الى اكبر المناصب ٠٠  
لأنه قد وهب من الصفات والمزايا ما ميا له أن يسبق سواه ويتقدم  
غيره ؟

أو ان فلانا ما زال موظفا ضئيلا لأنه قد حرم كل ما يدفعه الى  
السبق أو يهيئ له التقدم .

سمعت صاحباً يؤنب خادماً له قد أخطأ في أداء عمل كلفه إيراد  
قائلاً :

ـ أيها الغبي ٠٠ ماذا أقول لك ٠٠ وماذا أتوقع منك أكثر من هذا  
الغباء ؟ ٠٠ لو كنت أكثر نكاه لما بقيت حتى الآن خادماً ٠٠ ولكنك  
خيراً مما أنت فيه .

هل صدق صاحبي في قوله ؟ وهل خادمه ما زال خادماً ولم  
يصبح رئيس وزراء مثلاً ؟ لأنه لا يتمتع بقدر من النكاه كالذي يتمتع

به رئيس وزراء ؟ وهل الفارق بين نكائيهما كالفارق بين مركزيهما ؟  
لا أظن ٠٠ أو على الأصح قد يكون ٠٠ فقد يبقى البعض فى بؤر  
الحياة ، لا يستطيعون الصعود ٠٠ لأن غباءهم وضيق عقلهم  
يثقلانهم ويشدانهم الى أسفل . فيقضون حياتهم فى زوايا الخمول ٠٠  
، لكن البعض قد تضمهم أيضا زوايا الخمول ٠٠ لا لغباء أو ضيق  
عقل ولا لخلو من الأفضال والمزايا ، بل لأسباب لا دخل لهم فيها ،  
ولا صلة لهم بها ٠٠ أو على الأصح ، لغير أسباب سوى أنهم لم  
تسنع لهم سائحة حظ ، أو لم تلح لهم بارقة أمل .

ولست أشك أن خير مثل ٠٠ لهذا النوع الأخير الملقى فى زوايا  
الخمول ، بلا ذنب ولا سبب ، هو بطل قصتنا هذه : عم شحاتة  
الكفراوى .

وزوايا الخمول بالنسبة اليه لا تزيد على حجرة متواضعة بأسفل  
منزل فى حى المنيرة ٠٠ يقضى فيها ، أو على بابها ، ليله ونهاره ،  
راضيا مقتبلا .

وكم من مرة شرد بى الذهن فأخذت أضع عم شحاتة هذا فى شتى  
المواضع ومختلف المناصب ، فأراه مرة قائدا يضع الخطط ، ويدير  
المعارك ويقود الجنود ٠٠ ولا أجد فى ذلك أية غضاضة أو غرابة بل  
أجد من مهابته وشجاعته ما يكفل كل نصر ونجاح ، وأراه مرة  
أخرى زعيما يخطب الجماهير ، أو سياسيا يحرك الأحزاب ويسيطر  
على الأذهان . فلا أستغربه فى أية صورة بل أجدّه أفضل كثيرا ممن  
أتاحت لهم الفرصة فوصلوا الى ما لم يصل اليه .  
وقد يكون ذلك التصور منى ليس الا مبالغة .

أو قد يكون الدافع له هو حبه للرجل وقرط اعجابى به ٠٠ أو قد  
يكون مجرد سخف ٠٠ أو جنون ٠٠ من يدري ؟  
ولكن لم لا أريح نفسى وأصف لكم الرجل ؟

فى شارع المنيرة ٠٠ فى بيت من البيوت القديمة ، لا يزيد على طابق واحد - سلامك - متسع الحجرات ، رجب الشرفات ٠٠ كانت تقوم فى حديقته الضيقة حجرة صغيرة - منطرة - تطل نافذتها الحديدية على الشارع ، ويفتح بابها الخشبي الملون الزجاج فى الحديقة .

وفى داخل الحجرة كان يبدو عم شحاتة راكعا على سجادة الصلاة بجلبابه ٠٠ وعباءته الفضفاضة ٠٠ وطاقيته الصوفية ٠٠ وتسمع صوته الهامس يختم الصلاة بـ « السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله » .

ولست أريد بهذا الوصف أن أدخل فى روعكم ٠٠ أن الرجل من النوع الورع التقى ٠٠ الورع الى حد البله ٠٠ التقى الى حد السخف ٠٠ النوع الذى لا يرى الا وعلى شفثيه تمتمة وأصابه تعبث بحيات المسبحة ٠٠ النوع الذى تطالعك من جبينه زبيبة صلاة سوداء لكثرة السجود ٠٠ النوع الذى يضيع عمره فى شكر الله ٠٠ دون أن يحاول أن ينال ما يستدعى رضا الله ٠٠ أو يتمتع بما أعطاه الله .

هذا النوع الذى يستغفر الله بكرة وأصيلا فى كل لحظة وأونة ٠٠ بسبب وبلا سبب .

هذا النوع لا يزيد على أن يكون انسانا سليبا وجوده كعدمه .

ليس الرجل قطعاً من ذلك النوع .

فقد كان رجلاً نكياً ٠٠ وأظن ذلك هو خير ما يوصف به .

وأنا أحترم الرجل النكى ، وأعتقد أن خير ما يهبه الله للانسان

هو النكاء .

ويكفى أن يكون الانسان نكياً ليكون كل شيء ٠٠ فالنكاء يبعث

الانسان على أن يكون انساناً فاضلاً .

- والذكى لا يرتكب الاثم ولا يلقي بنفسه فى حمأة الرذيلة .
- والذكى لا يحرم نفسه متع الحياة ، ولا يقبل عليها بنهم يحمله على الندم .
- أجل ! الذكى لا يفعل أبدا ما يدعو الى الاعتذار ، أو الاستغفار . .
- كان الرجل ورعا تقيا . . ولكنه كان ذكيا . . فكان ورع الجوهر ، تقى الباطن . . لا يكثر من مظاهر ورعه وتقواه .
- وكان يعطى ما للناس وللناس وما لله لله .
- وكان ينتهى من تأدية فريضة الله ليقبل على ديوان لابن الرومى أو لأبى العلاء . . فيترنم بشعره ، ويعيد علينا بعض ما يستمتع ويستطرف .
- فإذا سمع أغنية جميلة أو موسيقى حلوة طرب لها وانتشى .
- وكثيرا ما كنا نسمعه يدندن لنفسه بصوت هادى جميل .
- ولست أظن أن الرجل ، رغم كل ما ذكرت من صفات ، كان يمكن أن ينال من اعجابى ما نال . . لو لم يكن على ما هو عليه من مرح وخفة روح .
- فأننا لا أحترم — بعد الرجل الذكى — الا الرجل المرح الخفيف الروح .
- ولا أظن أن هناك فارقا بين الرجل الذكى والرجل المرح .
- فالذكى لا بد أن يكون مرحا ، والمرح لا بد أن يكون ذكيا . وليس أدل على الغباء من التزمّت وتصنع الوقار وادعاء الهيبة .
- كان عم شحاته مثلا لانسان حاضر البديهة . . سريع النكتة ، وما أظننى قد ضحك قط كما ضحك فى مجلسه ، ولم يكن من النوع الذى يضحك على حساب غيره . . أو الذى يلقي النكات فيضحك البعض ويؤلم البعض الآخر ، أو كان مثلا يستضعف انسانا فيجعله موضع نكاته .

- بل كانت نكاته وفكاهاته ٠٠ خالصة لا تشويها شائبة ٠٠ ولا يتأذى منها انسان ٠
- بل تضحك كل انسان ٠
- ثم هو بعد ذلك ٠٠ أقدر الناس على فهم الناس ٠٠ وعلى التفاهم معهم ، وأقدرهم على ارضائهم مهما اختلفت عقلياتهم وتشعبت ميولهم ٠٠ وتباينت أهواؤهم ٠٠ وهو كذلك أقدر الناس على نصح الناس وإرشادهم دون أن يخرجهم أو ينال منهم ٠
- فتراه يشترك معى فى احاديث عن الحب وفى استملاح هذه أو تلك ٠ ثم يسوق النصح الى ، أو على الأصح يتسلل به الى فى خلال حديثه ، فلا يصدمنى به ، بل يزجيه الى هينا لينا ٠٠ مقبولا ٠
- مستساغا ٠
- وكان الرجل كريم النفس ٠٠ سمحا أيبا ٠٠ يزخر قلبه بالحنان ٠٠ وتفيض نفسه بالعطف ٠٠ يحس بالآلام الغير كأنها آلامه ٠
- ولا يستريح حتى يزيلها ، أو يشترك معه فى حملها ٠
- ترى هل أسرفت فى مدح الرجل ؛ أبدا والله ٠
- لقد كان الرجل - بعد كل ما قلته - خيرا مما قلت ٠
- لقد كان انسانا يحب ٠
- أو كان رجلا ٠٠ فى زمن أفقر من الرجال ٠
- ولكن ماذا كان الرجل يفعل ٠٠ بعد كل ما خلعت عليه من صفات الرسل وفضائل الأنبياء ؟
- ماذا كان يفعل ؟ !
- لست أدري !
- لقد عرفت عنه شيئا كثيرا ، ولكنى مع ذلك لم أدر ماذا كان يفعل ، وماذا كانت صلته بأهل الدار ٠
- بواب ؟ !

لا أظن .. فلقد كان مظهره ومعاملتهم له توحى بأنه أرقى من ذلك .

قريب لهم ؟

لا أظن أيضا ، فتصرفه معهم واحترامه لهم لا يوحي بذلك .

ولو أنه كان قريبا لهم ، فلم لم يأت معهم الى داخل الدار ؟

ثم أكثر من هذا وذاك :

ما الذى يجبره على أن يقطن فى الحجرة الصغيرة بلا عمل سوى

مراقبة الدار وتأدية الخدمات التى يطلبها منه أهلها ؟

لم لا يخوض غمار الحياة ، وهو الماهر الذكى ؟ . لم يقبع فى

حجرته قانعا راضيا ؟ .

ولكن من كان أهل الدار ؟ .

كان رب الدار عالما من كبار العلماء .. وشيخا وقورا معصما

من رجال الأزهر .. ذا منصب محترم ، ومكانة عالية ، تبدو عليه

مظاهر الطيبة والهدوء .. سمح الوجه ، من النوع الذى وصفناه

فى بادئ الأمر بأنه ورع ، تقى ، فقط . النوع الذى حذرتهم أن

يظنوا عم شحاته منه ، بتسبيحه وتمتمته ، دائم الوضوء ، دائم

الركوع والسجود ، يقبل الناس يديه ، ويرجون دعواته ، وبركاته ،

ويجدون فيه مثلا للصلاح ، والطيبة .. وهو الى جانب هذا يتمتع

بين أقرانه بسعة طيبة فله مؤلفات فى الفقه والدين واللغة ، تشهد

له بسعة الاطلاع .

ويقطن الرجل فى داره مع زوجته وولده وابنته .. أما الزوجة

فإنها امرأة بين الكهولة والشباب .. لم تستطع السنون الأربعون

التي مرت بها أن تخفى شيئا من جمالها الهادئ الساكن .. فبدا

وجهها حلوا التقاطيع .. جذاب الملامح .. وان كانت قد انتابتها

سمنة وترهل شان كل سيدات البيوت المصريات بعد الحمل والولادة .



اما الابن والابنة ، فكانا مثلاً لجمال الخلق والخلق وما اظنهما  
مستطيعين الا يكونا كذلك ، وأبوهما وأمهما قد جمعا جمال المظهر  
وجمال الجواهر .

ترى ماذا كان موضع عم شحاته من هذه الأسرة الطيبة الهائلة  
الأمّة ؟

لو أن الرجل أكبر سناً مما هو الآن .. لقلت عنه : جد للأبناء ..  
وأب للام أو للأب .

فهو شديد الحب للأريعة .. جم العناية بهم ، لا هم له الا ان  
يهيئ لهم أسباب الراحة والهناء ، ويوفر لهم دواعى المرح  
والسرور .. اذا مرض أحدهم فهو الساهر الذى لا ينام ، واذا  
أصاب واحداً مكروه فهو الباكي المتوجع ، واذا حدث بين الرجل  
وامراته أى نزاع مما لا يخلو منه بيت فهو المصلح الموفق ، واذا  
أقبلوا على معضلة فهو الناصح الأمين .

واذا احتاج أحدهم لشيء . فهو قاضى الحاجات الذى لا يشكو  
ولا يمل .

وكانت دارنا تقع أمام الدار المذكورة .. ولم تكن تجمع بيننا  
وبين أهلها صلات روابط الجيرة فحسب .. بل كنا أشبه بأهل  
وأقرباء .

فكان أبى صديقاً لرب الدار وكنت أعتبر ابنته وابنه أخوى .

أما والدتنا فكانتا لا تكادان تفترقان .

وكثيراً ما كانت تجمعنا الليالى فى مجالس أنس وسرور ، فيفيض  
علينا عم شحاته بفكاهته ومرحه ، ويشيع فى جو المجلس بشراً ،  
وحبورا .

وظللنا وإياهم على هذه الحال .. من المودة والألفة .. حتى  
فرقتنا الظروف .

فقد نقل أبى من القاهرة ، فاضطربنا الى الرحيل معه ، واخذنا  
نبتادل الرسائل والزيارات المتباعدة فى الأعياد والمناسبات ، حتى  
سمعنا ذات يوم نبأ وفاة السيدة •

وروعنا النبأ •• وأصابنا حزن شديد •• وما أنكر أنى رأيت  
والدتى تبكى بمثل تلك الحرقرة التى بكت بها السيدة ، والواقع أنها  
كانت امرأة نمونجية •• فى كل شيء •• وكانت حقاً تستحق البكاء  
•• ومرت بنا الأيام وخفف بعد الشقة وقلة المزار مما بيننا وبين  
الأسرة الصديقة من روابط وصلات • وشغلتنا عنهم شئون الحياة  
وشجونها •• فما عدنا نذكرهم الا لماما ، حتى انتقلنا مرة أخرى  
الى القاهرة •• وقادتنى قدامى ذات مرة لزيارتهم ، فقد كنت أحس  
بشوق الى عم شحاته والى مجلسه اللطيف •

ورقفت أمام باب الحديقة الحديدى ، ودفعته بيدي ، ودلفت الى  
الداخل ، واتجهت حسب عادتى الى حجرة عم شحاته على يسار  
الداخل وطرقت بابها طرقة خفيفا •

ولم يجب أحد •• فظننت الرجل يصلى ، وانتظرت برهة ، ثم  
أعدت الطرق ، ولكنى لم أسمع صوتا •• وضغطت مقبض الباب  
ودفعته أمامى ، فإذا بالحجرة خالية لا من الرجل فقط بل من مقاعدها  
وأرائكها وصناديقها وكراكييها ، وإذا بى لا أجد أمامى سوى أرض  
مجردة وجدران عارية •

وأغلقت الباب واتجهت الى باب الدار ، وقد شرد ذهنى وانتابنى  
خوف وحزن •• وساءلت نفسى : أين الرجل ؟ تراه قد مات هو الآخر ؟  
ووجدت باب الدار غير محكم الخلق ، فدلفت الى القاعة وبحثت  
فى جوانبها فلم أجد مخلوقا •• وصفقت بيدي تصفيقا خفيفا حتى  
يجيبنى من فى الدار ، فلم يرد على أحد •• وكنت واثقا انه لا بد  
أن يكون هناك انسان فى الدار •• على الأقل واحد من الخدم ،

وخاصة بعد أن وصل الى مسمعى ٠٠ صوت انسان يتحرك فى المطبخ .

وكانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحا ، رغم أن الشمس لم يبد لها أثر فى السماء ، فقد كان اليوم من ايام الشتاء التى تغلب فيه الشمس على أمرها ٠٠ وتحجب وراء ستار من السحب الثقيلة المعتمة ٠٠ ولم يكن خلق الدار من أهلها بمثير دهشتى ٠٠ فقد كنت اتوقع أن يكون الأب والابن قد ذهبا الى أعمالهما وأن تكون الابنة قد ذهبت الى مدرستها ٠٠ ولكن الذى اذهشنى هو الا أجد لم شحاته أثرا فى الدار ، وأن أجد حجرته خاوية على عروشها !

وتقدمت مترددا حتى وصلت الى المطبخ ووقفت ببابه فبدا لى منظر طريف ما كنت أتوقعه قط .

وجدت عم شحاته وقد انحنى على منضدة المطبخ ٠٠ وأمسك بيميناه ابرة وابور ، وبيساره ورقة مشتعلة ، وانهمك بكليته فى تسليك وابور الجاز .

ووقفت أرقبه وهو يضع سن الابرة فى ثقب الموقد ثم يرفع السن فيندفع الدخان بشدة من الموقد ويمد يسراه بالورقة المشتعلة فاذا بالموقد يتأجج ويتوهج ، وتندفع منه النيران قوية شديدة .

ووقف عم شحاته يرقب الموقد وهو يبدك يديه فرحا ٠٠٠ ثم نظر الى الموقد ، وهز رأسه ، وقال يخاطب الموقد فى شئ من الشماتة :  
— جنس كلب ٠٠ لا يجدى معك غير الوحز والشك !

ولم أستطع أن اكتم ضحكى فاندفعت مقهقهها ٠٠ والتفت الى الرجل مذعورا ، فلما تبيننى أقبل على يعانقنى فى شوق شديد ويقول مرحبا :

— أهلا ٠٠ أهلا بالذى يظهر فجأة من باطن الأرض ٠٠

- الذنب ننبك فقد تركت الباب مفتوحا على مصراعيه ولو سطا على الدار لص ، لسرق الدار وأنت لا تنزى .

- الذنب ننب الخادم . . . فقد أرسلته يبتاع لى حزمة بقدونس فلم يخلق الباب خلفه . . . ما علينا . . . ربنا يستر . . . كيف حاله ؟ . . .  
وحال الوالد والوالدة ؟ لقد طالت غيبتك حتى ظننا انكم نسيتمونا .  
- نحن ننساكم ؟ . . . ننسى عم شحاتة ؟ حاشا لله .

وصمت برهة كان الرجل يضع فى خلالها احدى الحلل الملائى بالماء فوق الموقد ، فأردفت متسائلا :

- ولكن لم هجرت حجرتك . . . حجرتك العتيدة ؟ . . . لقد رأيته خرابا بلقما !

- نقلت الى داخل الدار ، بعد وفاة المرحومة ، فهم فى حاجة الى ، وان كنت لا اظن اننى أستطيع أن اعوضهم عن قلامة ظفرها ، ولكننى أحاول ، وهذا كل ما أملك .

وبدت لى فى صوته رنة أسي يحاول الرجل عبثا أن يخفيها ، فقلت له :

- رحمها الله وأسكنها جناته .

وهز الرجل رأسه ببطء وقال :

- لا شك الا أنه فاعل . . . فمن غيرها أحق بالرحمة ؟ ولن سواها جعلت الجنان ؟

ومد الرجل يده فأمسك بمقعد فى ركن المطبخ دفعه الى قائلا :

- هل لديك مانع من أن تجلس معى هنا ، حتى أنتهى من مهمة المطبخ ! ؟

- مانع ؟ هل نسيتهنى ؟ ! . . . هات بعض هذا البطاطس أعاونك فى تقشيريه .

ودفعت الكرسي جانبا ، واقتريت من المنضدة : وامسكت  
بسكين ، وبدأت فى تقشير البطاطس الملقى على المنضدة .  
وامسك الرجل بالطماطم ، واخذ فى وضعها فى المصفاة ثم بنا  
مهمة العصر قائلا :

– اياك أن تجور على البطاطس .. خفف القشرة قدر المستطاع  
– من علمك البخل يا عم شحاته ؟ .. لقد كنت رجلا كريما .  
– الكرم شيء والعمل شيء آخر .. لو كان هناك من سياكل القشر  
لما نصحتك بأن تجعله رقيقا .. ما الفائدة فى الاسراف اذا لم يكن  
هناك من ينتفع باسرافك ؟ .. واذا كان الاسراف سينهب مع الريح ؟  
– حكمة جديدة .. مستوارثها الأجيال القاسية : عم شحاته ،  
وقشر البطاطس . .

وانتهى الرجل من تصفية الطماطم ، ورايته يغسل اللحم ثم طلب  
منى معاونته فى تقطيعه .

وامسكت اللحم أمامه ، واخذ هو يقطعه بالسكين .. ونظرت الى  
وجهه فبدأ لى إن السنين الأخيرة قد أثقلت كامله ، وانهكت قواه ،  
وانها قد دفعت الى الهرم بخطوات جثيثات سراع ، فاطقات بريق  
عينيه ، وحنث ظهره .. وقلت له متضاحكا :

– هربت فجأة يا عم شحاته !

– لقد كنت فى صراع مع الزمن .

– ومن كسب ؟

– انا ...

– لا اظن ! ..

– ولم ؟

– هذا الهزال ، وهذا الوهن .

– اثار بسيطة للمعركة .. خبوش ورضوض .. لا اقل منها !!

## – وماذا أصاب الزمن ؟ \*

– هزيمة منكرة : ارتد عنى وعنهم .. ألا ترانى سليما معافى ؟ !  
 ألا ترانى أظهور وأتحدث ؟ لقد صدمت فى بادئ الأمر ، صدمنا  
 جميعا ، ولم تكن نفعل الا البكاء ونقول مع الحكيم الذى سألوه  
 – لم تحزن مع علمك بأن الحزن لا ينفع ؟ – كفى حزنا أن الحزن  
 لا ينفع ، ولكنى كنت أول من تجلد ، ووقفت على قدمى وكلت للزمن  
 الضرية تلو الضربة .. فتركت حجرى ودخلت الدار ونزعت عنها  
 السواد ، وحاولت جهدى أن أبعد سحب الحزن المعتمة التى حطت  
 بها ، وضحكت وقلبي باك موجه .. وأخذت بيد الأولاد والرجل ..  
 وحاولت جهدى أن أحل محل الراحلة الجميلة الكريمة ، ولا أظننى  
 الا قد أرضيتها فى قبرها .. كما أرضيتها فى حياتها \*

وصمت الرجل وانعمت النظر فى وجهه الأسمر الذى ملأته  
 التجاعيد .. وقد علاه وجوم وتجهم ، وكانما أثارت الذكرى كامن  
 شجنه وهاجع جزئه ، ووجدت السؤال القديم قد قفز الى ذهني  
 فجأة .. السؤال الذى أعييتنى الاجابة عنه : من كان الرجل ..  
 وما صلته بالأسرة ؟ وماذا يضطره الى أن يفعل من أجلهم ما فعل ؟  
 أكل هذا نظير المسكن والمأكل ؟ لا أظن .. فلو أنه قد وجه جهده  
 فى أية ناحية من نواحي الحياة لكان خيرا مما هو الآن ألف مرة  
 ولأصاف ثراء ومكانة ، بل لأضحى خيرا من صاحب الدار نفسه ..  
 ماذا يجبره على تلك القناعة ، وعلى أن يشد نفسه الى الأسرة  
 كأنه جواد شد الى عرية ؟ ماذا يجبره على أن يعمل للرجل ولبنينه  
 خادما .. وعلى أن يحاول أن يعوضهم عن السيدة الراحلة خير  
 عوض ؟

وأحس الرجل أنى أضمن فيه النظر ، قرفع الى عينيه - ولم أشك  
 فى نظراته أنه قد قرأ ما جال بخاطرى فقد قال فى تودة ويطء :

— سل عما يحيرك • سل يا بنى • سل ذلك السؤال الذى أعيتك  
اجابته •• من أنا •• ومن القانى فى هذا الجحر اقضى فيه عمرى !  
من شدى الى هؤلاء القوم أفنى من أجلهم حياتى واقتبس من  
سعادتهم سعادتى ومن هنائهم هنائى •• سلنى يا بنى •• فبى حاجة  
الى الاجابة •• بى حاجة الى الافاضة •• سلنى وأتحلى قرصة  
الحديث ، فقد أجد فيه شيئاً من المتعة والعزاء •

وأدهشنى قول الرجل •• وخيل الى أنه يخلق صدره على أمر  
مرير وحزن دفين ولوعة مكبوتة • ومدت يدي وربت على كتفه  
وهمست اليه :

— تجلد ، لا تجعل الزمن يشمت بك بعد أن صرعت •

وتضاحك الرجل ، ثم أسقط اللحم فى القدر الموضوعة على  
النار ، وجذبني من يدي فأجلسنى على المقعد وسألنى :

— اصنع لك قهحا من القهوة ؟ •

— لا ضرورة لذلك • أنا لست غريباً • هل نسيت أننى من أهل

الدار ؟

وساد الصمت بيننا برهة كان الرجل يعطى فى خلالها — نفسا —  
للموقد •• ثم أخذ يتشاغل بتنظيف المنضدة •

وقلت له أستحثة على الحديث :

— تكلم يا عم شحاته ، ام ترى لا بد لى أن أسألك حتى تجيب ؟

أجب عن ذلك السؤال طالما حيرنى •• قص على قصتك •

— هى قصة قديمة •• تبدأ بمحسوك وهو طالب فى الأزهر ،  
أو على حد قولهم — مجاور — غلبان ، لا يملك من جطام الدنيا سوى  
كاكولة ، وعمامة ، ونعل ، بلغ من العمر ابنه •• وما زال يرجو  
له طول البقاء ، وصندوق خشبى ، حوى بعض الهلاميل وخرج

ملآن بالبتاو الجاف • وهو المرتب نصف السنوى الذى يرسله لى  
الأهل من البلد •

وكان يشاركنى مسكنى وقتذاك - وهو عبارة عن حجرة فى سطح  
منزل بالدراسة - زميل وخل وفى ، تعاهدنا فيما بيننا على أن نتقاسم  
السراء والضراء •• أو على الأصح الضراء والضراء ، فما أظن  
زمننا قد كرم معنا فوهب لنا السراء مرة واحدة •

كنا نتقاسم البتاو الجاف والجبن القريش • كنا نتقاسم الحصى  
تحتنا ، والغطاء الرث فوقنا • كنا نتقاسم نجوم السماء وسهر  
الليالى •• كنا نتقاسم الشاى الأسود وألفية ابن مالك ، وأخيرا  
كنا نتقاسم صياح الصبية يعدون خلفنا فى الطرق والحوارى :  
« يا مجاور ، عمك دابت ، م السلطه والفول النابت » •

كل هذا تقاسمناه ، وما أظنه من السراء فى قليل ولا كثير ، ومع  
ذلك فقد كانت نفسانا تفيضان غبطة ورضا •• وروحانا ترتعان فى  
سعة وبحبوحة ، سقى الله الشباب يا بنى ، الشباب والأمل المنشود ،  
فقد كان أصل الرضا ومبعث الغبطة •

كنت أضحك من كل شيء ، ومن لا شيء • وكنت أحس كأن نفسى  
تتوثب وقلبى يتحفز •• كنت أرجو وأمل ، وكنت أنتظر شيئا جميلا ،  
ولا شيء يمتع الانسان كانتظار المتعة ، فانتظار المتعة أجمل من المتعة  
نفسها • وتوقع النعيم الذى من الاستغراق فيه •

كنت نفسا مرهقة وقلبا حساسا وروحاً - كما يقولون - خاما  
تتوقع متعة مجهولة ، تجسدها لها ضحكة ناعمة تسمع فى سكون  
الليل ، أو صوتا جميلا يسمع من وراء نافذة مغلقة •

كنت خالى القلب ، ومع ذلك فما أظن القلب كان فى شغل فى أية  
فترة من فترات العمر كما كان فى ذلك الوقت • كان القلب أشبه  
بإنسان يستعد لعرس ، فهو دائم اليقظة ، دائم اللهفة ، دائم الشوق



والحنين ٠٠ الى من ؟

لا يدري

فهو ما زال ينتظر ويتمنى

كنت اعشق النجوم والسماء والنسيم والطيور ٠٠ كنت انظم  
القصيد فى الغزل والتشبيب ، وكنت دائم الترنم والشدو ٠٠ وكنت  
مفرقا نفسى فى متعة حب ٠٠ بلا حبيب او بحبيب لم يظهر فى افق  
الحياة بعد ٠٠ حبيب قد ينم عنه عطر عابر ، او جسد ملتف فى ملأه  
سوداء ، او ثغر باسم خلف البرقع ٠٠ حبيب انعكست صورته فى  
القلب قبل ان تبصره العين

وأخيرا يا بنى بدا الحبيب ٠٠ الذى لا يمكن ان يكون هناك حبيب  
سواه ٠٠ والذى طالت لهفة القلب عليه ، وحنين الفؤاد اليه ٠٠٠  
الحبيب الذى كنت اتمنى وانتظر

كان أول ما عرفت منها ضحكة بعثتها مع النسيم فى هدوء  
الليل ٠٠ ضحكة انطلقت من فيها فاستقرت فى قلبى ٠٠ وتردد  
صداها فى صدرى فملأتنى نشوة واقعمتنى طربا ٠ ومرت بى الليالى  
وأنا أعيش على الضحكة ٠٠ أميزها من بين ألف ضحكة ، وأعرف  
منها صاحبها اذا حملها الى النسيم ، كما قال الشاعر :

هبت لنا من رياح الغور رائحة بعد الرقاد عرفناها برباك  
ورأيتها بعد نلك ، بدمها ولحمها ، وفنتتها وسحرها ، تماما كما  
كنت اتوقع أن أراها ، وكما كانت تنعكس صورتها فى قلبى  
كانت تقطن فى دار مجاورة ، ورأيتها وقد خرجت من الدار  
متشحة بالحبرة وقد تلالأت عيناها خلف البرقع الأبيض ، وكنت  
أسير مع صاحبى فأصابنى ارتباك جعلنى اتعثر فى الكاكولة واكاد  
ارتقى على وجهى

وضحكت ٠٠ ضحكت على طبعها ، ووصلت الى مسامعى

ضحكتها ٠٠ وكانت فى هذه المرة وجها لوجه ٠ فأصابتنى اصابة مباشرة ، لم أفق منها الا وقد اختفت صاحبتنا عن عيني وسط زحام الشارع ٠

وبدأت بعد ذلك أشاهدها وراء نافذة المشربية فى كل زهاب لنا واياي ، وأخذت آمال القلب تتحقق شيئا فشيئا عندما أدرك أن صاحبه قد بدأ ينتظر أوبته وروحته ٠

وأنت تعلم يا بنى قدرة الشباب على تشييد قصور الأمانى وبراعته فى أن يجسم لنفسه الآمال والأحلام ؛

وهكذا لم تمض بضعة أسابيع ، حتى فزت من صاحبنى بابتسامة وسلام ٠

هل جريت الحب ؟ ٠٠ هل نقت انتصار الحب ؟ ٠ هل تعرف ما معنى أن يبتسم لك الحبيب ويشعرك أنه ميزك من دون خلق الله أجمعين ٠٠ ؟ هل تعرف كم تساوى تلك الابتسامة بالذات ؟

ابتسامة ٠٠ أى انفراج شفتين ، قد يمنحها صاحبها طول اليوم لمئات الناس فلا تعنى شيئا بالنسبة لهم ٠٠ ثم يمنحك اياها ٠٠ فتكون لك كل شيء : تكون النعيم ٠٠ وتكون الحياة ٠٠ ويكون انفراج الشفتين بالنسبة لك كأنه انفراج أبواب الجنة ٠

ومرت الأيام ٠٠ وأنا مغرق نفسى فى خضم من السعادة ، لا أكاد أبصر شيئا حولى ٠٠ سوى متع براءة خلاية ٠

ولقيتها ذات مرة ٠٠ وحدثتها ٠٠ فزدت بها وجدا وولها ٠٠ ووجدت فى نفسها رقة وعذوبة ٠٠ وكان اللقاء خلصة فى جوف الليل للحظات خاطفة ٠٠ مرت كأنها البرق ٠

وبدأت أرسم فى ذهنى مستقبلا حافلا ، وجعلت أشحن من همتى ٠٠ وصممت على أن أكون امراؤا ذا شأن ٠

ووضعت لنفسى الخطة التى توصلنى الى أسمى المناصب التى  
تنتهى بى الى أن أكون « شيخ الجامع الأزهر » .  
كل هذا من أجلها . ولم أكن أحس وقتذاك أنه أمل بعيد على ،  
أو شيء كثير عليها ، لقد أعطانى حبها قوة دافعة كانت تهيبى لى  
فعل المعجزات .

### ★ ★ ★

وصمت عم شحاته ، ووجدته يمد يده الى الرف فيأخذ من فوقه  
« بصلتين » ينهمك فى تقشيرهما وتخريطهما ، ثم سألنى قائلا :  
— هل تضايقك رائحة البصل ؟

وسألتنى أن يهبط الرجل فجأة من ذروة الحب الى حضيض  
البصل ، وتمنيت لو غادرنا المطبخ ليكمل لى القصة فى جو خال من  
الماديات الثقافة : بصل ، وجاز ، وطماطم ، الى جو شاعرى يلائم  
حديثه .

ولكنى خشيت أن أضايقه ، فقررت أن أحتمل البقاء ، وأن أغض  
الطرف عما يزعج شاعريتى من لوازم المطبخ .  
وانتظرت أن يعاود الرجل تتمة القصة ، ولكنى وجدته قد بدأ  
يبدئن كأنما قد انتهت القصة ، واستطعت أن أميز من دندنته :  
« ما كانش كده طبعك يا غزال » . وأصابنى منه غيظ شديد ، وقلت  
أستحبه على تتمة القصة :

— عم شحاته . هل يمكنك أن ترجى عتابك للغزل بعض الشيء  
حتى تتم قصتك . لقد قلت ان حبك أعطاك قوة دافعة تهيبى لك فعل  
المعجزات .

— وائى معجزات !

— هل أضحيت شيئا للجامع الأزهر ؟

— وهل هذه معجزة ؟

المعجزة هي انى اصبحت ما انا عليه ، فلا اظن وصولي للمنصب  
كان شيئاً كثيراً على .

قلت لك اننى انهمكت فى الدرس والتحصيل وفى وضع الخطط  
للوصول الى قمة المجد حتى لقيتها مرة ثانية . وكان اللقاء لمدة  
أطول ، مدة هيات لنا تجانب أطراف الحديث ، وتمنيت بعد اللقاء ..  
لو لم يحدث اللقاء أبدا .

فقد حطم أملى .. وذهبت معه أحلامى هشيما تذروه للرياح ،  
وتركنى فى ظلمة اليمه وحلقة معتمه .  
ماذا حدث ؟

لا شيء ..

لا شيء أكثر من أن صاحبتى أقبلت على فى حرارة وإخلاص ،  
وحدثتنى كما تحدث أخلص الأوفياء وأصدق الأصدقاء .. وأخبرتني  
انها تحس اطمئنانا الى وثقة بى ، وانها لم تجد انسانا يمكن أن  
تركن اليه سواى .

ثم أنبأتنى أنها تحب صاحبى !

— صاحبك !! صاحبك من ؟

— صاحبى الذى يسكن معى .. والذى قلت لك عنه اننا كنا  
نتقاسم الضراء معا .. فلما حلت بنا السراء .. كانت السراء من  
نصيبه .. ما علينا !

لقد ألفت الفتاة قولها الى ببساطة وإخلاص وطمأنينة كما تلقيه  
الى أمها أو الى صديقة لها !

وأحسبت بقلبي يدمى ، وبقيت مدة طويلة شارد الذهن ، محملاً  
فى الظلمة ، لا أكاد أعى مما تقوله شيئاً ، حتى تبهتني الفتاة ..  
وأفترقنا بعد برهة .. وبعد أن سألتني أن أبلغ تحيتها الى صاحبى .  
ولم أتم ليلتها .. بل رقدت خارج الحجرة أحملق فى السماء

حتى مطلع الفجر ٠٠ ثم تسالت بنفسى خارج الدار اضرب فى  
الطرقات على غير مدى ٠

وساءلت نفسى فى مرارة : لم هذا الخلط من القدر ؟ ما ضره  
لو جعل الفتاة تحببى أنا الذى لا أبصر فى حياتى سواها ، والذى  
أجد فيها بارقة تهدينى سواء السبيل ؟ !

ما الحكمة فى أن يجعلها تحب صاحبى الذى لا يكاد يحس بها ؟  
بما تراه يفضلنى ٠٠ وكلانا يكاد يكون نسخة ثانية من الآخر ؟ !  
وتملكتنى ثورة عنيفة ٠٠ على كل شيء ٠٠ على الحياة ، وعلى  
الناس ٠٠ وعلى القدر ٠٠ وأحسست بايمانى يتبدد ٠

وعدت فى نهاية اليوم محطم القوى ، مهدم الأعصاب ٠ وأقبل  
على صاحبى يسألنى عما بى ، وأين كنت طول اليوم قلم أجبه ٠  
وهل أستطيع أن أقول له ما بى ؟ !

ومرت الأيام ، فبدأت ثائرتى تهذا ، ولكن حبى لم يهدأ ٠ على  
النقيض ٠ لقد زاده الاجساس بالحرمان ، والشعور بالخيبة تأججا ،  
وانتهى بى التفكير الى أمر عجيب ٠

لقد أقنعت نفسى بأن من العبث أن أحاول الكف عن حب الفتاة  
فلقد تشعب حبها فى قلبى بحيث أضحى من العسير اقتلعه الا اذا  
إقتلع القلب نفسه ، ولقد منحتنى الفتاة ثققتها و صداقتها ، واطمأنت  
الى ، وأفضت الى بدخيلة قلبها ٠ لم لا أعتبر هذا نوعا من الظفر ؟ ٠٠  
لم لا أكرس نفسى لسعادتها وأحاول أن أحقق لها أمانيا ؟  
اذا كنت أحبها حقا ٠٠ ولم يتح لى القدر أن أكون أنا نفعى سبب  
سعادتها ٠٠ فلم لا أعاونها أنا على الظفر بالسعادة !

لم لا أكون عوناً لها على الحياة ؟

لم لا أهب لها نفسى ؟

أم لا بد لذلك من أن تهب لى نفسها ؟

لم لا أحاول أن أتمس سعادتي عن طريق سعادتها ٠٠ وهنائى  
عن طريق هنائها ! ؟

وهكذا أقنعت نفسى يا بنى ٠ وبتلك الطريقة فقط استطعت أن  
أضمد جراح قلبى ٠٠ وأن أهيب له ظللا تقيسه حرقة الطريق ،  
ووحشة السفر ٠

وأنبأت صاحبى بأن الفتاة تحبه ، وظللت به حتى أقنعت به حبها ،  
وكانت هذه أول خطوة لى فى طريقى الجديد ٠

وهكذا بدأت أسير فى الحياة بأمل واحد ، هو اسعادها ٠ أتذكر  
ما قلته لك من أننى بدأت أنهمك فى الدراسة ، وأرسم الخطط لكى  
أصل الى أسمى المناصب ، حتى أهب لها زوجا تستحقه ؟

أتذكر ما قلته لك من أن حبها أعطانى قوة دافعة تهيب لى صنع  
المعجزات ؟

لقد كانت القوة ما زالت بى ، وما زالت بى أيضا الرغبة فى أن  
أهيب لها زوجا تستحقه ، ولكنى لم أجد هناك ما يلزم لأن أرسم  
الخطط لنفسى ٠٠ فبدأت أرسم الخطط له ٠٠ وبدأت أستحثه على  
الدراسة والتحصيل ٠٠ وصممت على أن أقنى فيه ، وأن أجعل منه  
لها شيئا مذكورا ٠٠ حتى أهب لها الزوج الصالح الذى تستحقه ٠  
ولقد صنعت المعجزات يا بنى ٠

ما رأيك فيه الآن ؟

من ؟

— صاحب الدار !

— أهو نفسه صاحبك ؟

وهز عم شحاتة رأسه ٠٠ بالايجاب ، وعدت أسأل :

— وهى ؟

— أجل ، هى نفسها الراحلة الكريمة ٠

وساد الصمت بيننا برهة ، ثم عاود الرجل حديثه :

– لقد صنعت المعجزات يا بنى ٠٠ لقد كان من السهل على أن  
أجعل من نفسى شيئا مذكورا ٠٠ أما منه فقد كان الأمر يتطلب شيئا  
من الجهد ٠ لقد دفعته أمامى ، أو قل جررته كما يجز الحمار العرية ٠  
ألفت له الكتب ودفعت به الى أرفع المناصب ، وصنعت من أجله ،  
أو قل من أجلها كل شيء ، حتى صار الى ما هو عليه ، وجعلت كل  
همى فى الحياة رعايتها ورعايته من أجلها ٠

وانزل عم شحاته القدر عن الموقد ، ووضع طاسة الثقيلة وأخذ  
فى قدح السم ٠

وأخذت أفكر فى هذا الرجل العجيب ٠٠ وأسأل نفسى : هل يمكن  
أن تكون فى دنيانا أشياء كهذه التى قصها على ؟

وكأنما أدرك الرجل ما جال بذهنى ٠٠ قالت الى قائلا :

– لا تظن يا بنى أتى فعلت شيئا كثيرا ٠٠ بل لا تظننى فعلت شيئا  
ألبتة ٠٠ فليس فى قبلى أى نوع من أنواع التضحية ، وثق عندما  
أقول هذا أنى لا أقصد به التواضع أو انكار الذات ٠٠ فكل ما فعلته  
هو أنى أسعدت نفسى بطريقة لم يعتدها الناس ٠٠ أو أننى حاولت  
أن أسلك طريقا الى السعادة ٠٠ فلما وجدته مغلقا سلكت طريقا  
مجاورا انتهى بى الى نفس ما كان سينتهى اليه الطريق الأول ٠٠  
أو على الأصح ٠٠ الى خير منه ٠

ماذا فعلت يا بنى ؟

لقد عشت مع من أحببت طول عمرى ٠٠ لقد هيات لقلبي ظلالا  
تحميه من وهج الحياة ٠

ماذا يضيرنى اذا كان سوى قد حمل عنى المظلة التى منحتنى  
الظلال ؟ ماذا يضيرنى ٠٠ اننا تشاركنا فى الظلال سويا ! ؟

ماذا كان يمكن ان ائالة من السعادة أكثر مما نلت ؟  
هل كان ينقصنى سوى تلك اللذة الجنسية التافهة السريعة  
الزوال ؟

لقد عشت معها فى دار واحدة فما فارقتهما قط . وكنت أحس ان  
أولادها أولادى .

ولقد منحتها كل ما استطعت من سعادة وهناء .  
هل ترانى فعلت شيئاً كثيراً ؟ .. هل ترى فى فعلى أى نوع من  
انواع التضحية ؟

وفكرت لحظة ثم أجيبته ببطل :

– ليس أكثر من تضحية كل جندى مجهول .  
– أبدا يا بنى ! حتى هذا لا أوافقك عليه .. لقد كان ذلك هو  
ما أحس به حتى أشرفت على الموت ، فانبأتنى أنها تعرف كل شيء ،  
وأنها تحس أنها مدينة لى بكل شيء ، وأن ما فعلته أكثر من أن  
تستطيع رده .. ولا حتى بالحب .. ثم سألتنى أن أعتنى بالأولاد  
ويالرجل . وانبأتنى أنها ستنتظرنى فى السماء .. لنبدأ معا أمرا  
جديدا .. ثم ذهبت وخلفت بقولها ظلالة أخرى .. تحمى القلب من  
حرقة الفرقة .



# رجل عاقل

سيدي العزيز :

اية سخريه من سخريات القدر تلك التي تدفعني الى الكتابة اليك .. انا الذي ما رايت في حياتي مخلوقا أشد منك تفاهة ، ولو كان بيدى الأمر لصرفتك عن الكتابة الى مهنة اخرى ، اشفاقا عليك ورعاية لمصلحتك .

حب !! تصور أن مهنتك يا سيدي كاتب حب !! وأن مهنتك في الحياة حض الناس على العشق .. انك لا شك انسان تافه .. ليس لرجل مثلى عاقل محترم من رجال المال والأعمال فسحة للتفكير في تلك التفاهة التي تنشرها على الناس فان من العيب أن نصرف أذهاننا الى ذلك الحمق الذي تسميه حبا ، وأن نجعل منه شيئا يسيطر على مشاعرنا . صدقتني فانتى أضحك كثيرا من أولئك المجانين — وأنت واحد منهم — الذين يؤمنون بأن « الحياة الحب ، والحب الحياة » .

وحاشاي يا سيدي أن ازعم أن استخفافى لك ناتج عن قراءة

شيء مما تكتب فما حاولت ذلك قط ٠٠ لأننى أحس فى نفسى أننى أرفع من أن أنزل الى قراءة تلك الأقاصيص ٠٠ وأعقل من أن أجعل من سخافتك حتى مجرد وسيلة للتسلية بله التثقيف والفائدة ، وكان يجب ، والأمر كذلك ، ألا أعرف عنك شيئاً ، وألا أحس نحوك بشيء كأي مخلوق لا صلة لى به ، ومع ذلك فقد عرفتكَ ٠٠ عرفتكَ عن طريق ابنى الطالب بالجامعة ، أو على الأصح ، الطالب فى مدرسة قصصك ، فقد كان يقبل عليها بشوق ولهفة ٠٠ ويقرؤها مثنى وثلاث ورباع ، ويحاول أن يشيد بك أمامى وأن يظهركَ فى صورة العباقرة الفنانين ، فكنت أهرز رأسى فى صمت ، وكنت أتمنى لو كان أكثر تعقلاً وإدراكاً لحقائق الأمور ٠٠ كنت أتمنى لو كان مثلى رجل عمل ، فيقبل على دروسه ويسيقها كما يسبق سخافتك ، ولكنى مع ذلك لم أكن معه جامد العقل ، فلم أحاول زجره ، وكنت أقول لنفسى أنه ما زال صبياً ، فاذا ما بلغ مبلغ الرجال فسيكون أكثر رزانة ، وينظر الى الحياة ويفهمها كما أنظر إليها وأفهمها ٠

وهكذا يا سيدى رأيتكَ من خلال ابنى ٠٠ ولم أشك وقتئذ أن قراءك - ان كان لك قراء - كلهم من هذا النوع المرفف الحس ، المصطبغ المشاعر ، ولم أجد ضرراً فى أن يكون ابنى أحدهم ، وأن يمر بهذا الدور الذى يمر به كل انسان ، دور التلهف فى الحب والسكر بنشوة الهوى ٠

أجل يا سيدى ! ٠٠ لم أجد فى شغف الصبى بأقاصيصك عجباً ٠٠ بل لم أجد فى اندماجه ببعض وقائع الحب سوءاً ولا حرجاً ، فقد كنت أرى أن تعامله معاملة رجل لرجل ، وكنت أرى أن ذلك الشيء الذى يسمونه « الحب » إنما هو شيء طبيعى فى مثل هذه السن ، ولهذا لم أحاول أن أضيق عليه الخناق بطريقة تدعوه للتذمر أو التبرم ، بل كنت أسوق له النصيح كما ينصح الصديق صديقه ٠

وفى ذات يوم ٠ بدا لى الفتى واجما شاردًا على غير طبيعته ، ولم ألق الى الأمر كثير اهتمام ٠٠ وقلت لنفسي : انه ضيق طارىء سرعان ما يزول ، ولكن مضى يوم ويومان وهو مستمر فى صنعته وحزنه ، لا يتحدث الى أحد ، فاذا ما سئل بدا كمن هب فجأة من نوم طال استغراقه فيه ، ورأيته يعاف الطعام حتى انه لا يكاد يأكل ما يقيم أوده ٠

واذا علمت ، يا سيدى ، أن هذا الابن هو كل أملى فى الحياة ، وأن أمه ماتت وهو فى طفولته ٠ فجعلت له من نفسى بعد موتها أما وأبا ، وأنه ما كان يؤلمنى فى الحياة شيء كالم يصيبه أو مرض يلم به ٠

إذا علمت هذا ، وإذا كان لك ابن تحبه ، فلا شك أنك تستطيع أن تدرك مدى ما تركت حالته هذه من دعر فى نفسى وضيق بين جوانحى ٠

وحاولت أن أثبتن منه سبب ما به ٠٠ فما أجابنى بأكثر من « لا شيء » ٠

وحاولت أن أسرى عنه ، وأن أبعده عن جو الكتب والدراسة ، وأن أنهب معه فى بعض نزوات ، كنت أعرف أنه مشغوف بها ، ولكن كل هذا لم يخفف من وجومه واطراقه ٠

وساءلت نفسى : أيمكن أن يكون ما به أثر حب وصدمة عشق ؟ ٠ لقد قلت لك اننى شديد السخرية بمثل هذا التفكير ، ولذا أحسست بضيق شديد وكرهت أن يكون ابنى من هذا النوع العاجز الواهن ، القصير التفكير ، الضعيف الادراك ٠

وكان من العبث أن أقف هكذا وأنتظر ، وكان لا بد لى أن أفعل شيئًا ٠٠ فجلست اليه ذات مرة ٠ وأخذت أتبسط معه فى الحديث وامتدح له عبقريتك ، واقص عليه وقائع غرام وقعت لى فى صباى

وأقول له كما يقول المجانين : ان الحياة الحب .. والحب الحياة ..  
قرايت الفتى ينصت الى وقد بدت عليه السكونة والهدوء ، واحس  
نحوى بالطمانينة وبدأ يكشف عن خبيثة صدره ، ويقضى بدخيلة  
نفسه .

لقد قص على قصة حبه بالتفصيل ، ولست انوى ان اصدع بها  
راسك فهي قصة كل عاشق .

لقد علمت منه انه يحب فتاة تقطن في الدار المجاورة ، وانكر اني  
رايتها بضع مرات قبل ان يحدثنى عنها ، وكنت اعرف انها تكبره  
على الأقل بسبع سنوات او ثمان ، ولذا لم اجد غرابية عندما انبأتني  
في حديثه ان مصدر لوعته هو انها تهمله اهمالا تاما .. بل لا تكاد  
تحس له وجودا . فقد كنت ارى ذلك امرا طبيعيا ... فأغلب ظني  
انها وهى فتاة فى السابعة والعشرين او الثامنة والعشرين ، لم تكن  
لتبصر فيه أكثر من صبي يلهو ، ولم يكن ليخطر لها على بال ، وهى  
التي تتوقع خطبة وزواجا من رجل محترم ، ان تشتبك مع مثله فى  
عبث اطفال .

وحاولت طبعاً ان اسوق له النصيح - كوسيلة ابتدائية - فقلت كل  
ما يمكن ان يقال فى مثل ذلك المجال .. قلت له انها اكبر منه ، وانها  
لا تستحق ان يندفع فى حبها مثل ذلك الاندفاع .. قلت له ان الامتحان  
قد قرب ، وان دروسه اولى بالتفاتة ، وان امامه المستقبل زاه وزاهر ،  
وانه يجب ان يكون رجلا فيكف عن ذلك التخاذل . قلت له كثيرا من  
هذا القبيل .. فكنت فى نصيحى كالنافخ فى رماد او الصارخ فى  
واد ، وادركت انه لم يفهم من نصيحى كلمة واحدة . فقد شرد عني  
بذهنه مذ بدأت النصيح .

وتركته بضعة ايام ... عل النصيح يهديه فيهندي ... او لعل  
الله يهيىء له من امره رشدا ، ولكن الايام لم تزده الا سوءا .. حتى

علمت أنه انقطع عن الذهاب الى كليته ، وأنه يقضى يومه شاردا بين الحداثق والحقول ٠٠ أو بين الصحارى والرمال ٠٠ فلا يعود الى الدار الا وهو منهوك القوى ، محطم الأعصاب ، وهو الذى لم ينقطع عن دراسته يوما واحدا ، والذى لم يرسب قط فى امتحان اداه ، بل كان الأول دائما ٠٠ تصور يا سيدى حالى وأنا أراه كذلك ثم أقف أمامه مكتوف اليدين لا أملك له شيئا ؟ !

ومع ذلك فقد كان على أن أفعل شيئا ٠٠ انه ابنى يا سيدى ٠٠ انه كل ما لى ٠٠ انه فلذة كبدى ٠٠ انه انا ! ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ انا كما قلت لك رجل رزين محترم ، يعتبر جنون الحب خرافة ، ويرى « قيسا » وغيره من مجانين العشاق اوهاما من خيال الشعراء ، ولكن هانذا أرى ابنى قد صار احدهم ، بل شرا منهم . فكيف أنقذه ؟ أخطبها له ؟ ولكن كيف أزوج طفلا مثله ، وأحملة أعباء لا طاقة له بها فيصبح وله زوجة وأولاد ٠٠ ثم يتبخر الحب بعد بضعة أشهر ، ويبقى العباء طول العمر ٠٠ فيلعننى مدى الحياة ؟ ثم ماذا يغريها هى بقبول زواج من صبرى مثله ، وهى فى تمام وعيها وعقلها ؟

ماذا أفعل معه ؟ أرحل به بعيدا حتى ينسى حبه ؟ ٠٠ ولكن هل يقبل هو ذلك ؟ ٠٠ لا أظن ! ٠٠

وخيل الى أن هناك طريقا واحدا يمكن أن يؤدي الى شيء ، طريقا لو قيل لى أن احدا قد سلكه ، لقلت انه لا شك مجنون ، ولكنى تحت هذه الظروف لم أتردد فى أن أسلكه فقد كنت اتلف على بارقة أمل . كان هذا الطريق هو أن أذهب بنفسى الى الفتاة ، وأقضى عليها القصة ، وأخبرها بما وصلت اليه حالة الصبرى ، وأطلب منها أن تتولى هى علاجه ، وتقريه بعض الشيء ٠٠ حتى يخف ما به ، ويعود الى نفسه والى دروسه . ولعل الزمن بعد ذلك أن يبرئه ، أو لعله أن

ينصرف الى أخرى تشغله عنها • من يدري ؟ على أية حال فأى شيء  
خير بلا شك مما هو فيه •

وذهبت الى دارها - دون أن أخبره طبعاً - واستقبلتني هي  
فأنبأتها أنى فلان الذى يقطن بجوارهم فرحبت بى وأجابت أنها  
أسفة لأن أياها غير موجود • فقلت انى أريدها هي • فبدأ عليها  
شيء من الدهش ، ولكنها أجابت بأدب أنها على استعداد لأية خدمة •  
وقصصت عليها القصة ، وحاولت جهدى أن أوضحها لها من  
الناحية التى أبصرها بها • وشرحت لها بما تستطيع هي أن تؤديه  
لى من جميل لن أنساه مدى الحياة ، وبدأت على الفتاة دهشة  
شديدة • لم أستنكرها أنا منها ، فقد كنت أعلم أن المسألة برمتها  
مسألة عجيبة ، رأيتها تطرق وتستغرق فى صمت عميق ، فأخذت  
أرقبها بنظرة فاحصة حتى أتبين تلك المخلوقة التى أحدثت بابنى حالة  
جنون •

أجل • لقد أخذت أتمعن فيها وهى مطرقة صامته •

والى هنا ، ولتسمح لى أن أتمهل ، وأتمهل ، فمن هنا تبدأ قصتى  
الحقيقية ، ومن هنا كان يجب أن تبدأ رسالتى • لقد قلت لك انى  
قد سبق لى رؤية الفتاة بضع مرات ، ولكنها كانت كلها سريعة عابرة  
لا تسمح لى بتمييزها • أما فى هذه المرة فقد أبصرتها جيداً •

أتعرف يا سيدى تلك النوع من النساء الذى لا يبهرك منه بريق  
ولا ضياء ؟ ذلك النوع الذى يمتاز بجمال هادى ساكن يحس به  
القلب قبل أن تتيبته العين • والذى يزداد احساسك بفتنته كلما  
طالت نظرتك اليه ، والذى يتناسب تأثيره فى النفس تناسباً مطرداً  
مع طول الجلوس اليه والحديث معه ، هل فهمت ما أقصد ؟ أنا  
لا أجيد فن الوصف ، ولكن يخيّل لى مع ذلك أنك لا شك قد أدركت

ما أعنى ، ذلك النوع الدقيق الرقيق الذى يفيض عليك عنوية كأنه  
 ينبع يتدفق من الجنة ، أو كأنه نور القمر فى ليل هادئة ساج •  
 واخذت أتأملها فى صمتها ، وتفكيرها ، وأنا أحس بكثير قلق  
 حتى رفعت الى رأسها وقالت فى صوت هادئ :  
 - انى أقهم يا سيدى كل ما قلت ، وأدرك المسألة تمام الإدراك ،  
 وانى على استعداد لأن أقبل كل ما طلبته منى •• إذا كنت ترى فى  
 ذلك انقاذا لوليدك •

وأحسست بالتضاؤل أمام الفتاة •• كما يحس الانسان بالتضاؤل  
 أمام الآلهة •• فقد نزل على ردها بردا وسلاما ، كيف لا وأنا الذى  
 لو طردتني من دارها واتهمتني بالجنون لما وجدت فى قلها عجا ••  
 اليس مجنونا ذلك الذى يطرق دار جيرانه ليسأل ابنتهم أن تتولى  
 علاج ابنه « التلميذ » وتعيده الى دروسه وتنقذه من حبا ؟ !

ولكن الفتاة كانت ذكية لبقة •• ففهمتني ولم تسخر منى ، وكانت  
 كريمة شجاعة ، فلم تتردد فى أن تقدم على مساعدتى دون أن تجد  
 فى ذلك حرجا •• أترى الانسان يصادف فى حياته كثيرا من هذا  
 النوع ؟ •• لا أظن •• فانها مخلوقة نادرة !! •

ومرت بضعة أيام لم أدر ماذا حدث خلالها ، ولكنى أحسست فى  
 نهايتها بمعجزة تحدث •• لقد رأيت ابنى يعود الى نفسه ، بل الى  
 أكثر من نفسه •• رأيت يفيض بالأمل ، ويمتلئ بالحياة ، ويندفع  
 فى دراسته ، ليعوض ما فاتته بهمة مشحونة وإيمان قوى •  
 لقد أنقذته الفتاة من كل ما به !!

ولست أدري ما فعلت ، ولست أدري كذلك أية نهاية يمكن أن  
 ينتهى اليها ، ولكن الذى أدريه أن قلبى كان يفيض بالشكر •• وانى  
 قد ملأتنى رغبة قوية لأن ألقاها لأزجى اليها امتنانى واعترافى  
 بجميل صنعها •

وفعلنا لقيتها !!

لقيتها مرة ٠٠ وثانية ٠٠ وثالثة ٠٠ وفى كل مرة انتحل لنفسى  
عذرا ٠ ووجدت نفسى مضطرا الى التعرف بأبيها حتى يكون اللقاء  
مستساغا ٠

لقد لقيتها مرة لأشكرها ، وانتهى الشكر ٠٠ لم حاولت انن أن  
القاها ثانية وثالثة ، ولم كانت بنفسى لهفة على لقائها فى كل حين ؟  
اضحك يا سيدى ٠٠ اضحك ملء شديك ٠٠ اضحك من الرجل  
العاقل الرزين الذى كان يراك تافها ، فلقد أضحى أكثر منك تافهة ٠٠  
اضحك يا سيدى فقد كنت أنا هذه المرة لا ابنى ! ٠  
أيمكن أن يكون هذا معقولا !! أنا الرجل الكهل المتزن الذى يظن  
أن قد فهم الحياة على حقيقتها ٠٠ وانتهى من كل تلك السخافات التى  
تسمى حبا ؟

كف عن الضحك يا سيدى فانى استحق الرثاء والبكاء ، أعترف  
ما كان عليه ولدى من الشرود والحزن واليأس ، لقد أصبحت على  
أضعاف أضعافه ٠

كيف استطاعت التسلل الى قلبى الجامد المغلق ؟ لقد سلبتنى  
صوابى ، وأصبحت شيخا عاشقا !

أجل ! لقد أضحيت أحرق مافونا حتى لقد فكرت فى أن أتزوج  
الفتاة ، واندفعت فى حبى محاولا أن أجتنب قلبها ولكن عبثا  
حاولت ٠٠ فقد كان قلبها مشغولا !! أتدرى بمن ؟ بابنى ! أجل ٠٠  
لقد انتهى الأمر بها الى حبه ! لقد دفعته أنا الى ذلك الحب ٠٠  
فجعلت من ولدى غريما لى ٠

ماذا أفعل يا سيدى ؟ لقد كتبت اليك لأنى أود أن أخرج من  
صدرى بعض تلك الجمرات التى تتأجج فيه ٠٠ ولاسالك كيف أنقذ  
نفسى ؟ إياك والنصح ٠٠ فانت أدرى الناس بقيمته لدى العشاق ٠٠



اياك أن تقول لى اننى رجل كبير محترم رزين عاقل ٠٠ وان من العيب  
أن أندفع فى حب لا فائدة فيه ولا طائل تحته ، وان من الحق أن  
اتأزع ابنى حبه ٠٠ اياك أن تقول لى ذلك ٠٠ فانا أعلمه أكثر منك  
ولقد قلته لنفسى مئات المرات ، فلم يجد نفعا ، ولكن ماذا يستطيع  
مخلوق مثلك أن يفعل لمخلوق مثلى ؟

ان الله وحده هو الذى يستطيع أن يفعل ، اللهم هبنى من لذك  
رحمة .

المخلص

.....

★ ★ ★

ولقد وهب الله رحمة ٠٠ ورحمة الله للإنسان تكون بأحد امرين :  
اما أن يفقده روحه أو عقله ٠٠ فأسعد الناس اثنان : ميت ومجنون  
وكانت رحمة الله لصاحبنا بالطريقة الثانية ٠٠ فلقد حاولت أن  
أرد على خطابه فعلمت أنه جن !! يا له من رجل عاقل !!



## رجل عبقرى

وضع العبقرى منظاره فوق عينيه وأخذ ينشر أمامه ورقة قد طويت فى يديه ٠٠ وبدا عليه ارتباك شديد كأنه تلميذ يوشك أن يلقى قطعة من المحفوظات ٠

ومضت فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدا القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة ٠

وانتظر فترة قبل أن يسود المكان السكون عقب تلك العاصفة المدوية من التصفيق والهتاف ، وأخيرا هدا القوم ولم يعد يسمع فى أنحاء القاعة الرحبة الأرجاء الا همسات خافتة ٠

وانتظر القوم أن يتكلم الرجل المحتفى به والذى احتشدوا لتكريمه ، ونظر الرجل الى الورقة فى يده ، ومررت برهة وهو صامت لا يتكلم ، وأخيرا طوى الورقة مرة أخرى ثم رفع رأسه وخلع منظاره وبدا متوتر الأعصاب ، مرهق النفس ، كأنما ينوء بحمل لا قبل له به ٠

كنت أحس ما يعمل فى نفسه اذ ذاك من المشاعر فقد كنت أدرى الناس به ٠٠ كنت أعرفه ، شديد الخجل ، جم الحياء ، لا يريكه شيء

قدر أن تواجهه بالاعجاب أو تلقى على مسامعه مديحا أو ثناء ..  
 فما بالك وقد وجد نفسه أسيرا في دار الأوبرا ، مجبرا على أن  
 ينصت الساعات الطويلة الى أحاديث المديح فيه ، وخطب الاعجاب  
 به وقصائد الاشادة بفضله ، وإن كنت أشك كثيرا في أنه قد انصت  
 فعلا فهو أقدر الناس على السرحان في اثناء الخطب والمحاضرات .  
 ما بالك بالرجل الخجول وقد وجد نفسه مبعث هتاف وموضع  
 تصفيق من الجماهير الغفيرة التي احتشدت بها المقاعد والمقصورات ،  
 حتى لقد ظن نفسه زعيما أو ممثلا !!

ما بالك وقد وقف بلحمه ودمه على مسرح الأوبرا ليرد على أقوال  
 المعجبين والمادحين .. حقيقة أنه قد حضر ما سوف يليقه ، وحقيقة  
 أنه حفظه وقراه على عدة مرات حتى حفظته أنا نفسي عن ظهر قلب ،  
 ولكنني مع ذلك أراه قد عاوده خجله وأصابه الارتباك ، وارتج عليه  
 قلم ينبس بينت شقة ، ونشر الورقة وطواها دون أن يقرأ منها حرفا .  
 وأخيرا فتح الله عليه ، ففتح فاه وبدأ الحديث ، ووصل الى ،  
 مسامعي صوته الأجلش ، وقد أخذ يلقي كلماته ببطء وتؤدة . قال :  
 « أنا لا أجيد الحديث .. ولقد حاولت أن أكتب ما سوف أقول  
 حتى لا يبدو للناس عجزى ، ولست أكتكم القول أنى أجهدت نفسي  
 فيما كتبت ووضعت فيه ما استطعت من تنميق وزركشة ثم أجهدت  
 نفسي في حفظه حتى لا أرتبك في القائه .. ومع كل ذلك فقد أصابني  
 الارتباك لأنني وجدت ما كتبت زككا سخيلا إذا ما قورن بما أحس  
 به فعلا .. أن لكل انسان أمنيات في صباه ، وأمنيات الصبا لا يقتصد  
 فيها المرء ولا يتعقل بل يطلقها من أوهامه براءة بلا حدود ولا قيود ،  
 ولقد تمنيت في صباى أن أكون كاتباً شهيراً وتخيلت نفسي رجلاً ذائع  
 الصيت طائر الشهرة .. وبالغت في الخيالات وفي الأوهام ، ورغم  
 ذلك لم أستطع بأوهامى أن أصور لنفسي ما أحسن به الآن ولا أن

اضعها فى الموضع الذى وضعتونى فيه ٠٠ أجل ما استطعت أن اوهمها أنى ساكرم حيا ٠٠ وانى سيقال فى ما قد قلتموه ، ولا اخالنى استحق شيئا مما حدث ومما قيل ، ولكن ما ذنبى وقد أجبرت على قبوله وأغلب ظنى أن مبعثه هر كرم فى نفوسكم ٠٠ لا فضل فى ٠٠ ولا نبوغ منى !

ولا أظنكم بعد كل ما فعلتموه من أجلى ترفضون لى مطلباً أخيراً وهو أن تعفونى - وأنتم الكرماء - من رد دينكم لأنه لا يرد ، فانا أضعف من أن أرده ، وأعجز عن أن أخرج ما فى قلبى على لسانى ، والسلام عليكم ،

وترك الرجل المنصة متعثراً مضطرباً ، واندفع الناس فى نوبة جنونية من التصفيق والهتاف ونهضوا عن مقاعدهم متجهين نحو الأبواب ٠٠ فقد انتهى الحفل .

وزهدت أبحث عن صاحبى ٠٠ الكاتب العبقري ٠٠ فوجدته بين الجماهير كأنه فارس غريق ٠٠ ولم يكذب يصرنى حتى تقدم الى وتعلق بذراعى كأنه يتعلق بحزام النجاة ، وسألنى أن أخرج به الى الهواء الطلق .

وكان صاحبى رغم عبقريته ككاتب ، ورغم كل ما أقيم له من حفلات تكريم ، ورغم ما له من شهرة وتقدير ، ما زال فى نظرى « الخم » خلق الله ! وكنت أرى فيه خير دليل على المثل العامى : « يعطى الحلق للملئ بلا ودان »

فقد كان لا يعرف كيف يتمتع بشهرته وبمركزه ، وكما حاولت أن ألقنه بعض دروس فى العظمة أو التعاضل وأن أعلمه كيف يسير وكيف يرد تحيات الناس ، وكيف يتصنع الثقل والكبرياء ، ولكنى كنت كالنافخ فى « قرية مقطوعة » فما أجدت الدروس نفعا ، وكما حاولت أن أرغمه على تقليد « سيد أفندى » وهو أحد النكرات ، كان لا يقبل

علينا الا منتفخ الأوداج ، واضعا يده فى جيبه ، ممسكا عصاه باليد .  
الأخرى ، مطاولا برأسه الى السماء ٠٠ مصعرا خده ، وعليه سيماء  
من يشعر أن كل من حوله يتهامسون : هذا هو سيد أفندى الرجل  
الشهير ٠٠ ما قد أقبل سيد أفندى : ألم تروا سيد أفندى ؟

وكننت أحس بالرتاء لسيد أفندى ، لأن الأقدار خلطت بينه وبين  
صاحبه ، فقد حرمته الشهرة التى تتناسب مع تصرفاته ومظهره ،  
وأعطت صاحبه من الشهرة ما لا يتناسب قط مع تواضعه وانكاره  
لذاته . وكننت كثيرا ما أقول له ( مشيرا الى سيد أفندى ) : « تعلم  
كيف تسير ٠٠ تعلم كيف تنظر الى الناس ! » .

فيجيبني فى ذهشة : « أنت لا شك مجنون ٠٠ أتريدنى أن أسير  
هكذا ٠٠ كالديك الرومى ! » أتريد أن تضحك الناس مني ؟ ! » .

واستمررت فى قولى محاولا اقناعه :

— عندما تسير أنت كالديك الرومى ، فلن يضحك عليك أحد ،  
لأنك يحق لك أن تسير كما تشاء ، وأن تفعل كما تشاء ٠٠ ولكن  
عندما يسير هذا الحمار النكرة كالديك الرومى ٠٠ لا يستحق الضحك  
فقط ، بل يستحق ضرب النعال ٠

ومع ذلك لم يقتنع صاحبه ٠٠ بل استمر على مشيته — الغلابة —  
٠٠ وعلى خجله من الناس ، وفراره منهم ، وكلما ازدادت شهرته  
ازداد تواضعه وازداد حياؤه حتى بت أعقد أن الرجل لا يعرف قدر  
نفسه ٠٠ وأن ما يصدر عنه من دلائل النبوغ وعلامات العبقريّة ليس  
سوى خيط عشواء .

لقد صارحته بذلك ذات مرة فلم يجيبني بأكثر من قول جوتيّه شاعر  
الألمان « نحن لا شيء ، ولو صدقنا أنفسنا فوضعناها فى أماكنها لما  
بقى فى الدنيا غرور ولا كبر » .

وهكذا لم أستطع أن أبذل من صاحبه العبقري . ولا استطاعت

الشهرة أن تغريه بالكبرياء والتعظيم ، واستمر هو هو ، فى لخمته .  
وتواضعه ، حتى هذا اليوم الذى أجمع فيه القوم على تكريمه  
ووضعه بين النجوم وعلى هامة السحب خرج يتأبط ذراعى وهـ  
يتعثّر فى أذياله ويكاد يذوب خجلا .

ودلفنا الى العربة ، ولم تكد تسير بنا العربة قليلا حتى أمر  
السائق بالوقوف وأنبأنى أنه يرغب فى السير وسألنى ان كنت على  
استعداد للمسير معه ، فلم أمانع .

وصرفنا السائق وسرت وإياه فى ميدان العتبة وتجاوزنا بناء  
البريد . وكانت الساعة قد بلغت السابعة ، والميدان يعج بالمارة  
ومركبات الترام كأنها خلايا النحل ، والعربات يزاحم بعضها بعضا  
وآلات التنبيه لا تكف عن الصياح ، والباعة يتواثبون ويتصايحون ،  
ويكون من كل هذا خليط من أصوات تصدع الرءوس ، والجو قد  
علقت به ذرات لست تدري أمن تراب أم من ضباب ، ذرات تتكسر  
خلالها حدة الأضواء المتناثرة المتنافرة .

ووصلنا الى شارع عبد العزيز . وعبرنا قضبان الترام متجهين  
الى شارع محمد على ، وسرنا على الاقريز العريض الذى تحده  
الأعمدة الضخمة التى رصت على جوانبها شتى أنواع الكتب  
والروايات .

وتوقفنا برهة نقلب الطرف فى الكتب المرصوفة هنا وهناك ،  
ثم عاودنا سيرنا الهوينى . وبدأ على صاحبى أنه يستعيد لنفسه  
ذكريات حلوة غابرة ، وأنه يشعر من سيره بمتعة ، فقد علت وجهه  
علامات السكينة والانشراح ، وسمعته يندندن بصوت خافت أغنية  
قديمة هى « ياما انت واحسنى » وكنت أعرف أن هذه الأغنية هى  
أبرز علامات انسجامه وسروره .

ووصل الى أذننى صوته يندندن فى خطوات : « كيد العوازل

كايدنى « ، عندما صاح صوت من جانب الطريق : « اتفضل يا أستاذ » ، ثم اندفع ألينا من إحدى المكتبات رجل بجلباب ومعطف وهجم على يد صاحبي فهزها هذا عنيفا مقسما أغلظ الأيمان أن نتفضل ، ورأينا أنفسنا أمام أحد أمرين : إما أن نطلق للريح سيقاننا ٠٠ أو نتفضل ٠٠ فتفضلنا ٠٠ وجلس الرجل يجذب أنفاسا من الشيشة ، وأخذت الشيشة تكرر وتتصاعد منها الفقاقيع ، وجرعنا فتجائنين من الشاي الأسود ٠٠ ثم ودعنا الرجل وهو يقسم أغلظ الأيمان أن نعاود زيارته ٠

وعاودنا السير حتى وصلنا الى باب الخلق وصاحبي ما زال في انشراحه ودندنته ، وإن كان قد انتقل الى أغنية أخرى وأخذ يردد : « سباني سهام العين » ، وطال بنا السير دون أن أعرف وجهته ، أهو يقصد مكانا معنا ، أم هو يسير لجرد الرغبة في السير ؟ ولم أرد أن أقطع نشوته بالسؤال ، وسرت الى جانبه أدندن أنا الآخر ٠٠ وقلت لنفسي : علام الخجل ، وأنا لا أفعل أكثر مما يفعله رجل ٠٠ كرمته البلد ٠٠ في دار الأوبرا منذ دقائق معدودات ؟

ورأيت صاحبي يتجه فجأة الى اليمين ٠٠ ودخلنا في شارع قادنا الى حي الحلمية ، وهنا لم أجد بدا من سؤاله : الى أين ؟ ولم يجبني لأول وهلة ، بل مال بي الى حانوت لبيع عصير القصب ، ودفع بابيه الزجاجي ودلفنا الى الداخل ، وجلسنا على مقعدين بينهما منضدة نحاسية مستديرة وأقبل علينا صاحب الحانوت يحيى صاحبي في لهفة وشوق ٠ ورد عليه صاحبي تحيته بنفس اللهفة ونفس الشوق ٠٠ كأن بينهما قديم صحبة وسابق ود ٠

وجلسنا أتأمل الرجل بجلبابه الأبيض ، ولاسته التي لف بها رأسه وغطى أنفيه ، وقد أخذ يروح ويجيء في المحل الضيق وقد بدت عليه فرحة شديدة ، وأخذت ألفاظ الترحيب تنساب من فمه :



— سلامات يا بيه ٠٠ والله زمان ٠٠ زارنا النبي ٠  
ولم تكن فرحة صاحبى بجلسته فى الحانوت بأقل من فرحة الرجل  
٠٠ فقد بدت عليه علامات البشر والأنس ٠٠ وأخذ يسأل الرجل عن  
حاله وعن أولاده وامراته ٠

وأمسك الرجل بعيدان القصب يغسلها وينظفها بسكينه ثم يدفع  
بها بين شقى العصارة فيسيل منها العصير أبيض كالليب وينسكب  
فى إبريق مغطى بشاشة نظيفة بيضاء تحجز ما قد يرسب فى الإبريق  
من ثفل وشوائب ٠

وقدم الينا الرجل كوبين مترعين بالعصير قد توجتھما رغوۃ  
بيضاء ، وأخذ صاحبى يحتسى كوبه بلذۃ ونهم حتى أتى على ما فيه  
فاقرغ له الرجل كوبا آخر ٠

وكان المحل يقوم على ناصية الشارع ٠٠ فهو يهيىء للجالسین  
فى داخله مراقبة السيل الذى لا ينقطع من المارة ومشاهدة زبائن  
محلات الحلوى والبقالة والفاكهة التى تقوم على جانبى الطريق ،  
والتطلع الى عدد لا يستهان به من شرفات النوافذ والدور المقابلة ٠٠  
وهكذا كان الحانوت أشبه بنقطة مراقبة ٠

ووضعت الكوب على المنضدة ، وقلت لصاحبى فى شىء من  
التهكم :

— لو عرف مكرموك فى دار الأوبرا أين تقبع الآن ٠٠ لنندموا على  
تكریمهم إياك !

فرقع حاجبيه وقال فى لهجة مؤكدة :  
— ولو خیرت أنا بین قضاء الساعات الطوال أسیرا فى دار  
الأوبرا ، و بین بضع دقائق أقضيها فى احتساء كوب من عصير الحاج  
محمود ٠٠ لفضلت العصير ٠٠ ما رأيك ؟

— جنون ٠٠ أو شنود ٠٠ أنا لا أنكر أن العصير من نوع جيد ٠٠

ولكنه لا يستحق ذلك المشوار الذى قطعناه من أجله ٠٠ لا يستحق  
أن نحبس أنفاسنا مع الحاج محمود داخل ذلك الحق الملىء بالقصب .  
ولم يجب صاحبى ، ورايته يتطلع ببصره من الأبواب الزجاجية ،  
ويشرد بذهنه برهة ثم يسألنى ببساطة :  
- هل تعرف منزل الأنس ، الذى عناه الشاعر فى قوله :  
يا بش يا منزل الأنس الذى درست  
آثاره وعفت منذ بنت أريعه

لقد كان لنا هنا منزل أنس ٠٠ بانث مبعث أنسه ٠٠ ورحلت عنه  
منبع حياته ٠٠ فدرست من بعدها آثاره ٠٠ وعفت أريعه ، اللهم الا  
آثرا واحدا بقى يذكرنا بها وبه ، هو هذا المحل الذى نجلس فيه  
الآن .

وأقول الحق انى دهشت من قول صاحبى ، وفوجئت من رنة  
الأسى التى به ٠٠ فما كنت أتوقع أن يكون له فى المكان واقعة غرام  
قديمة ٠٠ وما كنت أتوقع أيضا أن تكون كعبة غرامه التى يحج  
اليها ٠٠ هى دكان عصير قصب ، وأن يكون هذا الدكان هو كل  
ما تبقى من منزل الأنس الذى يتحدث عنه .  
وسألته متضاحكا :

- هل أفهم من قولك أننا قد قطعنا كل تلك المسافة من الأويرا الى  
الحلمية ٠٠ حتى تتمتع حضرتك بزعايز الغرام ، ومصاصة البهوى  
الباقية من منزل الأنس الذى عفت آثاره ؟  
- لا تكن « بايخا » ولا تحاول أن تهزل فى كل موضع .  
- آسف ٠٠ ولكن هل تتوى أن تظل هكذا جالسا فى بقايا منزل  
الأنس ، أم قد أن لنا أن نعود أدرأجنا ؟  
- قم بنا ٠٠ نمشى قليلا .

وننهضنا ، ولم يقبل الرجل أن يأخذ منا مليما واحدا رغم الحاجتنا عليه ، وقال لصاحبي مؤنبا :

— عيب يا أستاذ ٠٠ دى معرفة العمر وعشرات السنين ٠٠  
فضلك سابق وخيرك علينا ٠

وسرنا على الاقريز بجوار المحلات ، وأشار صاحبي الى محل يقال  
بجوار المحل الذى خرجنا منه ، قائلا :  
— هذا المحل كان قيما مضى معمل طرشى ٠

وأشار الى محل بجواره لبيع الأدرات المدرسية وقال :  
— أما هذا فكان مبيض نحاس وبجواره كان يوجد الأسطى سعيد.  
العجلاتى ٠٠ وعلى الناصية كان يقف حسونه بائع الجوزية ، وعلى  
الناصية الأخرى كانت تقف عربة غزل البنات ٠ أما هذه الدار  
المجاورة فكانت مدرسة أولية تدعى « حسن المسرات » ٠ كل ذلك  
قد أصابته يد التغيير والتبديل ٠ لا شئ قد بقى على حاله سوى  
الحاج محمود بائع عصير القصب . ولكنى مع ذلك لا أكاد أجوب  
المكان حتى ترتسم فى رأسى صورته القديمة ٠٠ فما استطاع الزمن  
الذى محاها من الحقيقة أن يمحوها من الذهن ، أو قل ان الذهن  
أكثر تعلقا بالصورة القديمة فهى تذكره بأيام حلوة وسنين خضر  
يائعة ٠

أنا لا أبصر فى ذلك المنظر الذى تبصره شيئا ، ولكنى أبصر المنظر  
القديم والصورة الغابرة ، أبصر بائع الجوزية وأبصر مبيض  
النحاس الذى سود النحاس وجهه وقد وضع قدميه فى احدى الحلل ،  
وارتكز بيديه على الحائط وانهمك فى تحريك نصفه الأسفل وهز  
وسطه وعجزه ٠٠ أبصر أمامى منزل الأنس عندما كان يشيع فيه  
الأنس ٠٠ أبصره قبل أن تدرس منه الآثار ، وتعفى الأربع ٠٠ أبصره  
منذ عشرين عاما وقد سرت بجواره كما أسير الآن ٠٠ وقد حملت

تحت ابطى بعض ما كتبت .. وانتابنى شعور عزيز قوم اجبرته  
الحاجة على مد يده للمسؤال \*

كنت اذ ذاك أحد النكرات ، وعندما اقول أحد النكرات .. لا اقصد  
بذلك اننى اضحيت الآن خيرا مما كنت فأنا هو أنا .. ما تغيرت  
وما تبدلت ، ولكن نظرة الجماهير الحمقى الى قد تغيرت ، وقيل لهم  
ان هذا رجل عبقري فرددوا القول كالبيغاوات واقبلوا على كقطع  
من الغنم يسيغون كل ما اكتب حتى ولو كان سخافة ، واذا ما كتبت  
شيئا غير مفهوم ، اعتقدوا أنه أسمى من مداركهم وازدادوا اعجابا  
به حتى لا يفهم سواهم أنهم لا يفهمون \*

كنت وقتذاك اكتب لنفسى .. فما كان هناك من يحس بى ، وكانت  
الآمال تصطخب فى جوفى ، وكانت تدفعنى أحيانا الى أن أرسل  
ما اكتب الى الصحف والمجلات .. ثم أقبل على شرائها بلهفة على  
أرى فيها شيئا مما قد كتبت ، وتمر بى الأسابيع وأنا ما زلت أمل ،  
حتى يصيبنى اليأس ، وأدرك أخيرا أن ما كتبت قد طوته سلة  
المهمات \*

وفى ذات يوم كتبت احدى القصص ، وأحسست من مجرد  
كتابتها بنشوة ، وخيل الى أنها من خير ما كتبت ، وقرأتها على  
صديق لى .. حتى أعرف رأيه فيها .. فقد كنت أدرك أنه ما من  
انسان الا ويدفعه الغرور الى الزهو بما كتب .. وطلبت من صاحبي  
أن يبدى رأيه فيها صراحة \*

وانتهى صديقى من قراءتها ورأيت فى وجهه علامات التأثر واقسم  
لى أنها من خير ما قرأ وأنى لو أرسلتها الى أية صحيفة أو مجلة فإن  
تتردد فى نشرها \*

ولم أتبين فى صاحبي علامات مجاملة أو ريلج ، فعزمت على أن  
أرسلها الى احدى المجلات على أنما آخذ تجربة \*

وسألنى صاحبي :

– كيف ترسل قصصك الى المجلات ؟

– بالبريد •

– لا • لا • خير لك أن تذهب بها بنفسك •• حتى لا يلقي بها

فى سلة المهملات دون أن تقرأ •

– ولكنى لا أعرف أحدا هناك •

– لا ضرورة لمعرفة أحد •• اذهب وقابل رئيس التحرير والمطلب

منه أن يقرأها أمامك •

ولم أتصور قط أنني أجسر على ذلك العمل •• ولم أشك فى أن

رئيس التحرير سيأمر بطردى شر طردة •

وتركنى صاحبي وجلست وحدى أفكر ، وأنا كما تعلم رجل

خجول •• يسرى الخجل فى عروقى مسرى الدماء ، وانتهى الأمر

الى التصميم على عدم الذهاب وعلى أن أرسل القصة بالبريد ،

وليفعلوا بها ما شاءوا •

وحملت القصة لألقى بها فى صندوق البريد •• وخطر لى فى

الطريق خاطر مفاجئ ، لم لا أجرب زيارة الأستاذ ( ••••• ) فى

داره ؟

لقد كانت داره قريبة منا وهو صاحب مجلة واسعة الانتشار ••

لا يكتب فيها سوى كبار الكتاب ، فماذا على لو ذهبت اليه فى وقت

راحته وسألته أن يقرأها ويرى ان كانت تستحق النشر •

وأخذت أشجع نفسى قائلا انى لن أعدم طريقة أقنعه بها لقراءتها ،

وان الرجل لا شك سيخجل من زيارتى له فى داره ولن يلقانى بغير

الترحيب •

واختمرت الفكرة فى رأسى واتجهت الى الدار ، ويبدو مرتجفة

طرقت الباب •

وفتحت لى الخادمة ووقفت بالباب تسألنى عما أريد .. وأطل  
وراءها وجه طفلة صغيرة تسألنى بصوتها الرفيع : « أتريد بابا » ؟  
وأنبأت الخادمة أنى أريد الأستاذ .. فعدت تسألنى دون أن  
تفسح لى طريق الدخول : « نقول له مين ؟ » ..  
ولكن الطفلة لم تعطنى فرصة الاجابة .. ورأيتها تدفع الخادمة  
وتجذبني من يدي صائحة : « انه موجود .. تفضل » ..  
وقادتني الطفلة الى حجرة الاستقبال ، وذهبت الخادم لتنبئ  
سيدها وجلست الطفلة تعيث ببعض الدمى المخصوصة على احدى  
المناضد .. وتوجه الى من أن لآخر أسئلة تافهة مضحكة ، وتقص  
على ما فعلت فى يومها وبعض ما سيحضره لها أبوها ..  
وأخيرا دفع الباب ودخل الرجل الذى كنت أعلق عليه أملى ..  
ولم يبد على الرجل انه ارتاح لمنظرى ، وشد على يدي ..  
وجلس على مقعد أمامى ، ثم أمرنى بالجلوس قائلا :  
- تفضل يا أستاذ ..  
وسادت بيننا فترة صمت أحسست فيها أننى قد أصبحت كما  
يقولون فى « نصف هدومى » وأخذت أجهد الفكر كيف أبدأ الحديث  
.. هل أبدأ بمجاملة الرجل بمدح بعض ما قرأت له ، أم أتجه الى  
الموضوع رأسا وأسأله عما أتيت من أجله ؟  
وطال الصمت ، وقطعه الرجل بقوله :  
- اى خدمة يا أستاذ ؟  
وازداد بى الحرج وارتج على وفتحت فمى لأتكلم ، ثم أغلقته ،  
وتكرر الأمر بضع مرات حتى خشيت أن يظن بى الرجل بلها فيطردنى  
شر طردة ، ولم ينقذنى سوى الطفلة الصغيرة التى تقدمت تحمل الى  
صندوقا من الحلوى وسألتنى :  
- تريد « يومبون » ؟

ومددت يدي فأخذت من الصندوق واحدة ألوكها فى فمى وأستعين بها على لم أطراف شجاعتي ، ومدت الطفلة يدها فأمسكت بالظرف الذى وضعت فيه القصة وعادت تسألنى :

– ايه ٠٠ صور ٠٠ هل أستطيع الفرجة ؟

وهنا حلت عقدة لسانى ، وقلت موجهة القول للرجل :  
– هذه قصة يا سيدى ٠٠ قصة كتبته وخيل الى أنها قد تصلح للنشر .

ثم صمت برهة أتمالك فيها أنفاسى وعدت أقول :  
– وانى أتمنى لو وجدت من وقتك بعض الفراغ ، حتى تقرأها .  
وصمت مرة ثانية فقد بدت على وجه الرجل علامات الغيظ وخيبة الأمل .

ولم أجد فى ملامحه أى مشجع على المضى فى الحديث .  
وتكلم الرجل أخيراً وقال فى شبه تأنيب :  
– أظن انه كان من الأفضل لو أحضرتها الى ادارة المجلة فانى متعود أن أتخذ من البيت مكانا للراحة ! على اية حال يمكنك تركها ٠٠ وسأرى اذا كانت تستحق النشر ٠٠ وان كنت أثبتك سلفا بأن لدينا من أمثالها المئات .

وأحسست من قوله بمرارة ، وعزت على نفسى التى عرضتها لمثل هذا الموقف ، وحاولت جهدى أن أتمالك حتى لا يغلبنى البكاء ، فقد كنت أحس وقتذاك بالدموع قريبة من مقلتي ٠٠ دموع الفشل والخذلان ، وندمت أشد الندم على أنى لم أرسل القصة بالبريد .  
وتقدمت الى الطفلة بقطعة أخرى من الحلوى على سبيل العزاء ، وأمسكت بالظرف فى يدها قائلة :  
– سأضعه على المكتب .

ونفض الرجل فشد على يدي مودعا ، وخرجت أتعثر في أنيال  
القشل ، واقسمت في نفسي ألا أعود الى الكتابة .  
ومرت بضعة أيام ، وكنت مستلقيا في حجرتي عندما اندفع  
صاحبى الى الحجرة وقد أمسك بيده المجلة الشهيرة وقذف بها الى  
صائحا :

— مدهشة ؟ ألم أقل لك انها لا بد أن تنشر ؟  
وأمسكت بالصحيفة أحملق فيها فوجدت اسمى قد نقش بالخط  
العريض على احدى صفحاتها « بقلم الأستاذ .. » .  
ولا أظننى أستطيع أن أصف لك فرحتى وقتذاك ، فقد امتلأت  
نفسى بالأمل بعد أن شملها يأس حالك ، وعزمت أن أذهب للرجل حتى  
أقدم قروض الشكر .

وذهبت الى الدار مرة ثانية ولقيتنى الطفلة ، فأقبلت على مرحبة  
كان بيننا صحبة قديمة ، ولقينى أبوها فهنأنى على القصة .  
ثم أشار الى ابنته :

— ان الفضل في نشرها راجع اليها ، فقد دستها بين المقالات التى  
أعدت للنشر ، وأخذها الجماعون فصفوا حروقها وحملوا البروفات  
لأقراها فأصابتنى الدهشة ، وتساءلت من أين أتى الجماعون بهذا  
الكلام .

وكنت قد نسيت كل شيء عنك وعن قصتك ، وأرغمنى ما بالقصة  
من تشويق الى قراءتها حتى النهاية فرأيتها من أبداع ما قرأت  
فأمرتهم بانزالها فى العدد الذى أعد للطبع .  
وصمت الرجل برهة ثم أردف :

— وهكذا الحظ ، لا يمنح للانسان الا ولید مصادفة ، ولا يفصل  
بين الشقاء والنعيم ، الا حادثة بسيطة قد تحدث وقد لا تحدث ، أو  
كما قال الخيام :



أتري عمر الفتى قد علقا بسوى خيط وماذا حسما  
غير خيط بين نور وظلام  
وطلب منى الرجل أن أكتب كثيرا وأبدى استعداداه لنشر كل  
ما أكتب .

★ ★ ★

وكنا قد وصلنا الى عابدين .. عابرين فى سيرنا درب الجماميز ،  
وشارع الخليج ، وتوقفنا فى عابدين وأشار صاحبى الى احدى  
عريات الأجرة وانطلقنا الى داره فى المنيرة .  
وضمننا حجرته ، وجلسنا على مقعد وثير ، وتعدد هو على  
احدى الأرائك ، وأمر الخادمة أن تحضر لنا الشاي .  
وقلت متسائلا :

— لم تحدثنى بعد عن « منزل الأئس » ؟  
وصمت صاحبى فترة استجمع فيها شوارد أفكاره .. ثم اخذ  
يتم قصته قائلا :

« وهكذا أصبحت بين يوم وليلة كاتباً معروفاً ، أو كما قال  
بيرون : « استيقظت من النوم فرأيتنى رجلاً مشهوراً » .  
وتهاقنت على الصحف والمجلات ، فأعدت اليها ما سبق أن  
أرسلته وقذف به فى سلة المهملات ، وتعمدت أن أطلب أجراً مرتفعاً  
فقد كان بى شعور الشامات الآخذ بثأر نفسه ، المنتقم لكرامته .  
وكنت احس فى قرارة نفسى أن الفضل فيما وصلت اليه من نجاح  
يرجع الى الطفلة الصغيرة .. وكنت أشعر لها بشعور العرفان  
بالجميل .. وزادت الأيام وأصر الصداقة بينى وبين أبيها ، حتى  
أضحى يرى فى أخا أصفر .. وأصبحت كأنتى فرد فى أسرته  
الصغيرة المكونة من زوجته وابنته ، وكان كثيراً ما يلقي على أعباء  
عمله ، فأقوم بها مرحباً مغتبطاً .

ومرت الأيام ، والأشهر . والسنون ، وأنا أقضى أسعد أوقاتي  
بينهم ٠٠ وكنت أرى منزلهم منزلا لى ، أو كما كنا نسميه « منزل  
الأنس » .

ونمت الطفلة وأصبحت فتاة كأنها الزهرة المفتحة فى كمها ٠٠  
تنشر فى البيت عبيرها ، أو كأنها طير غرد يملأ الدار بترنيمه .  
وكانت الفتاة تتنادينى بـ « عمى » وكنت لا ألقاها الا وأرفعها بين  
يذى وأغمرها بالقبلات ، فما نسيت قط أنها هى التى جعلتنى شيئا  
مذكورا .

ولست أظن أن هناك امرا استطاع أن يتمتع بقدر من السعادة  
بذلك القدر الذى استمتعت به وأنا فى « منزل الأنس » ٠٠ المنزل الذى  
لا يدخله الهم ٠٠ وكانت كثيرا ما تجمعنا المدفأة فى الشتاء ، حيث  
أجلس لأقص عليهم القصص ، ونحتسى عصير القصب يرسله إلينا  
الحاج محمود فى أباريقه .

وفى ذات يوم أصيبت الفتاة بوعكة ، ازدادت على الأيام فأضحت  
داء عضالا .

وهنا بدأت تلف الدار وحشة أليمة ، لا يكاد يسمع فيها المرء  
سوى همسات وزفرات ٠٠ وأحسست أن هناك غصة فى حلقى أو  
كأن يدا تعتمر قلبى ، فلقد كان بى شعور أب يوشك أن يفقد حشاشته  
كبيده .

وبدأت أشم فى جو الدار رائحة الخطر ، وبدأ لى من وجوه  
الأطباء أن خطبا مدلهما على وشك أن يحيق بنا ، فلقد كانت وجوهم  
مظلمة متجهمة .

وفى ذات ليلة جلسنا فى القاعة كئنا على رؤوسنا الطير لا ننبس  
بكلام وقد توترت أعصابنا وأرهفت نفوسنا لا نكاد نجسر حتى على  
الاستلقاء ، وكانت الأم تجلس مع الفتاة فى حجرتها ٠٠ ثم خرجت

الينا فقتلعلنا اليها بأنفاس مبهورة ، وفى أعيننا نظرة تساؤل ٠٠  
وتقدمت الى الأم وهمست « انها تريدك » ٠

ودلفت الى الحجرة التى ساد فيها السكون وامت الظلمة واتجهت  
الى فراشها فجلست على حافته ومددت يدي فأمسكت بيدها أربت  
عليها برفق ، وأجبرت نفسى على الابتسام والتضاحك ، وقلت لها :  
- أنت الآن أحسن ٠٠ وستشرق الشمس عليك فتصبحين فى خير  
وعاقية ، ان شاء الله ٠

وهزت رأسها هزات خفيفة ، وهمست :  
- ان الشمس لن تشرق على ٠٠ لا فائدة ٠٠ اقتررب منى !  
أسمعنى ؟

وحاولت جهدى أن اتمالك ٠٠ واقترربت منها وقلت :  
- انى أسمعك يا حبيبتى ٠٠ ولكن لا تجهدى نفسك بالحديث ٠  
ورأيتهما تمد يدها تحت الوسادة فتخرج الى مفكرة صغيرة  
وتعطيها الى قائلة :  
- احتفظ بهذه ولا تقرأها الا بعد ما اذهب ، واذا لم اذهب فأعدها  
الى دون أن تقرأها ٠

وجذبت الفتاة يدي ثم وضعتها على فمها برمة ٠  
ثم ذهبت ٠٠٠  
أجل ! لقد ذهبت الى غير رجعة ٠٠٠ لقد رحلت عنا رحيل لا اياب  
منه ٠ لقد تركت الدار وأهل الدار ، وقد أصيبوا بلوعة أدمت قلوبهم  
وأحرقت أفئدتهم ٠

وصمت صاحبى ، وتحشرج صوته ، ودمعت عيناه ، ولم يعد فى  
حالة تساعد على اتمام الحديث ، ورأيته يمد يده فيفتح أحد أدراج  
مكتبه ، ثم يخرج منه مفكرة صغيرة ٠٠ ويدفعها الى ٠  
وأمسكت بالمفكرة فوق بصرى فى أول صفحة منها على ما يلى

» ٠٠ ما الحياة ؟ ٠٠ وما الانسان ؟! ٠٠ الحياة محيط من ظلمات  
حالكة مدلهمة ، مجهول البداية : مجهول النهاية .

والانسان فيها زورق تدفقه ربح الزمن وتقلبه أمواج الأحداث  
ونوء المحن ٠٠ لا يقر له قرار ، ولا تهدأ من حوله ثائرة ، دفته فى يد  
القدر الغشوم والظروف الهوجاء فهو يهبط ويعلو ، ويندفع ذات  
اليمين وذات اليسار ، بلا سلطان له على نفسه ، ولا تحكم فى  
مصيره .

وفى حلقة الدياجير وبين هدير الأنواء وزئير الرياح الهوج ،  
قد تلوح له فى الأفق بارقة ترشده الى مرقأ يقيه عصف الريح ولطم  
الأمواج ، فيندفع اليه على يجد لنفسه منه مأوى يريحه من عناء ،  
ويؤمنه من خوف ٠٠ هذه البارقة هى ما يسمونه الحب ، وذلك المرقأ  
هو قلب يفيض عليه من حناياه دفئا وهداية . ويندفع زورق الانسان  
على ضوء البارقة فى لهفة وجنون ، فاما أن يصل الى مرقئه فيقضى  
بين أحضان عمره ، ويجد من حياته حسنة ويستقر على قرة ، واما  
أن يخبو الضوء قبل أن يصل اليه ٠٠ فتكون البارقة خادعة كاذبة ،  
ويعاود سيره فى دياجير الحياة وبين أمواجه المتلاطمة حتى يصل  
الى النهاية المجهولة . وكأنه ما ولد وما عاش .

ترى أى مصير سيندفع اليه زورقى فى هذه الحياة ؟ لقد لاحت  
لى البارقة ، ولكنى لا أجسر على أن أتجه اليها ، فانى حائرة أتخبط !  
هل تجسر فتاة أن تقول انها تحب عمها ؟ أجل ! انى أحب الرجل الذى  
يلقانى فيرفعنى بين يديه ويجلسنى على ركبتيه كأنى دمية فى يده ٠٠  
انى أحب رجلا ، يأبى الا أن يعتبرنى ابنته ، أية حمقاء أنا !! ،

ولم أتم قراءة المذكرات فقد أنهلنى ما بها ، وكهت أن أطلع  
على أسرار فتاة ثوت فى باطن الأرض .

ومددت يدي بالمفكرة الى صاحبي ، ولم أنبس بكلمة . وأعاد  
صاحبي المفكرة الى مكانها وهمس الى :  
-- لقد دفعتني الفتاة في الحياة دفعتين : دفعة وهي طفلة حين  
رفعتني من زوايا الخمول الى قمة الشهرة ، ودفعة عندما قرأت  
مذكراتها ، فقد جعلت مني انسانا آخر ، انسانا يتأجج في صدره  
حب لا تخمد ناره وتجيش في قلبه عاطفة لا يملك الزمن إخمادها  
ولا تستطيع الأيام محوها .. انسانا يعشق روحا طاهرة خلت من  
أدران الأرض وشوائبها .. أجل ! لقد علمتني معنى الحب ، وجعلت  
مني - كما يقولون - رجلا عبقريا !!



## رجل قرير

أتم الأسطى ابراهيم زينهم النجار نصف دينه وأقبلت زوجته  
زكية تشاركه داره المتواضعة التى خلفها له أبوه .  
لنبدا بوصف الدار . ثم اهل الدار .

الدار فى دمياط ، فى احدى الحارات الضيقة المتواضعة مكونة  
من طابقين : الطابق الأول دكانان ومنذرة ، والطابق الثانى غرفتان  
وردهة ومرفق مياه .

يشغل الدكان الأول المعلم على الخضرى بقرنبيطه ، وكرنبه ،  
وطماطمه ، وكوسسته ، وبقية خضره ، التى تزخر بها الأرفف  
والأقفاس ؛ ويشغل الدكان الثانى عم يهنس بائع الحلوى ، ولعب  
الأطفال ، بمزاميره ، وطائراته ، وعرائشه ، وبرطماناته الملأى بكافة  
أنواع الملابس وبراغيث الست والمصاصات . وكان أشهر ما فى  
الرجل مزماره الذى لا ينفك ينفخ فيه بين آونة وأخرى ، فتصدر منه  
أصوات كأنها زغاريد النساء .

أما المنذرة فكان يشغلها الأسطى ابراهيم نفسه بالكراشى  
والدواليب وغيرها من قطع الأثاث المحطمة ، التى يقوم بتصليحها  
وترميمها .

أما الدور الثانى فقد اتخذ الرجل لسكناه ، وحشد فيه جهـ  
زوجته مع المخلفات العتيقة التى تركها له والده ، والتى يبصرها فى  
الدار مذ وجد على قيد الحياة •

هذا عن الدار •• أما عن أهلها فلا أظن وصفهم يحتاج الى كثير  
جهد أو مشقة •

هم قوم قريرو العين ، ناعمو البال ، وهب الله لهم من قناعة  
النفس نخيرة كبرى أعانتهم على الحياة •• وهيات لهم الرضا عن  
كل ما حولهم •

الرجل كريم النفس •• طيب القلب •• ملء نفسه الايمان وملء  
روحه التقى والورع •• راض عن كل شيء •• يرى الناس بعين  
الرضا الكليلة عن كل عيب ، المخفية لكل سوء •• أما عين السخط  
التى تبدي المساوىء فهى عنده عمياء لا تبصر •

ولقد وافق شن طبقة •• فكانت امرأته لا تختلف عنه قليلا ولا  
كثيرا •• فهى من النساء الطيبات ، القاتعات ، الراضيات ،  
لا تغتاب الناس ، ولا تذكرهم بمسبة •• تحب زوجها وتجد فيه نعمة  
أنعم الله بها عليها •

كان الزوجان ينعمان بحياة رغدة هائلة •• وكان الرجل لا يكاد  
يفارق الدار ، فهو اما فى مسكنه أو فى ورشته بين أكداس الأثاث  
المحطمة منهمكا فى دق المسامير أو خلعها •• كان كل عمله لا يزيد  
على الترميم والترقيع •• يجلس وسط الحجرة على مقعده الصغير  
وقد أحاطت به اكوام الكراسى القديمة والمناضد المهشمة •

أما الزوجة فهى فى حجرتيهما دائبة عاملة •• تكاد تنتهى من  
عملية تنظيف الدار التى تشمل الكنس •• والمسح ، والتنفيض ••  
حتى تبدأ فى تجهيز الطعام وطهوه •• وهى فى خلال عمـ! تحس



فى قرارة نفسها بالغبطة والرضا ٠٠ لا تكاد تكف لحظة عن الترنم  
باحدى الأغنيات ٠

وكان أكثر ما يبعث التفاؤل فى نفس الزوجين ويشيع فى قلوبهما  
السرور ٠٠ زمارة عم بهنس رغم ما كانت تحدثه من ضجيج ٠٠  
وقالت الزوجة لزوجها وقد جلسا للغداء :

— هذه الزمارة تذكرنى بزغاريد عرسنا ٠٠ ان عم بهنس يجعل من  
كل يوم لنا عرسا جديدا ٠

وهكذا كانت حياة الزوجين تجرى كزورق يسير فى رفق وهدير  
٠٠ لا نوء تعصف به ولا رياح هوج ٠٠ بل نسيم هادىء من الرضا  
والقناعة يحركه فى لين ويسر ٠٠ ويدفعه فى مجرى سهل مستقيم  
لا عقبات فيه ولا موانع ٠٠ حتى يصل الى نهايته المحتومة آمنا سالما  
دون خدش ولا عطب ٠

ترى أية قصة يمكن أن نجدها فى حياتهما الآمنة المطمئنة ٠٠  
حياتهما الطبيعية الهادئة التى لا التواء فيها ولا تعقيد ؟

هل يمكن أن يجد الكاتب فى أمثال هؤلاء القريرى العيون أبطالا  
لقصصه ٠٠ ؟ هل يمكن أن يجد من حياتهم موضوعا لقصة ؟  
لم لا ؟ ٠٠؟ لنتتبع زورقهما السائر فى رفق ولين ٠٠ بلا عواصف  
ولا زوايع ٠٠٠ حتى نصل معه الى النهاية المحتومة ٠

الرجل قابع فى مكانه المعتاد يرفع يده « بالشاكوش » ويهوى به  
فى طرقات آلية منتظمة ؛ والمرأة فى مطبخها تحرك يدها بشدة لتعطى  
الوابور نفسا حتى تعجل بنضج حلة البامية ؛ وعم بهنس ينفخ فى  
زمارته مطلقا الزغاريد ذات اليمين وذات اليسار ٠

ويقترب رجل أسود يحمل على ظهره دولابا صغيرا فيضعه أمام  
الدار ثم يطرق الباب ٠

ترك الأوسطى ابراهيم المقعد الذى أمامه ٠٠ وألقى الشاكوش

من يده ٠٠ وقام ليرى الطارق ٠٠ وبعد لحظات كان يتعاون مع الرجل على اسخال الدولاب داخل المنذرة ٠

كان الدولاب قطعة ثمينة من الأثاث بخشبه المتين وصنعه المتقن وأعمال الأويمة الدقيقة ٠٠ وأنباء الخادم الذى حمله اليه أنه لسيده زكى بك فوده وأنه يريد اصلاح وتركيب الساق المخلوعة ٠٠ ثم غادره وانصرف بعد أن اتفق معه على أجر الاصلاح ٠

وقف الرجل برهة يتأمل الدولاب ٠٠ فما تعود من قبل أن يصلح مثل هذه الأشياء الثمينة ، وأخذ يتحسس النقوش التى به كانه يتحسس ضريح أحد الأولياء ، وقد أخذ بدقة الصنعة ومهارة الصانع ٠ ومضت بعد ذلك بضمة أشهر ، وفى ذات يوم بعد أن تناول الغداء مع امرأته ٠٠ لم يهبط المنذرة وحده ليتم عمله كعادته بل سحب زوجته من يدها برفق وطلب منها أن تهبط معه لأنه يود أن يريها شيئاً ٠

ووقفت المرأة تتأمل الدولاب الدقيق الصنع ، البديع النقوش ، وسألت فى دهشة :

— ألم تعده الى أصحابه بعد ؟  
— بل أعدته ٠

وهزت المرأة رأسها متسائلة دون أن تفهم ما يقصده ، فقال الرجل :

— لقد أعدت اليهم دولابهم ، أما هذا الذى أمامك ، فنحن أصحابه ، انه ملكنا ٠٠ فأنا الذى صنعته ٠

وفغرت المرأة من الدهشة فاها ٠٠ واقتريت من الدولاب فتحسسته فى ذهول وقالت متسائلة :

— أنت الذى صنعته ؟ ٠٠ أنت وحدك ؟ صنعته كله ؟

وعلت شفتى الرجل ابتسامة الغبطة والرضا وتمتم مجيباً :

— أجل ٠٠ أنا وحدي ٠٠ صنعته كله ٠٠ ما رأيك ؟

— مدهش !

وحمل الدولار الى أعلى ، ونقلت الملابس من داخل الصندوق  
تقوضت فيه ، وتصدر الدولار حجرة النوم فخلع عليها رونقا  
بملاها روعة .

ولم يعد سر الدولار خافيا ، بل انتشر أمره ، وذاع صيته ٠٠  
ولم يبق من الجيران أحد الا وقد علم به وحضر لرؤيته . وفي ذات  
يوم حضر زكى بك نفسه صاحب الدولار الأصلي ، فقد بلغه الأمر ،  
وروقف يتأمل الدولار في عجب ، ونظر الى الرجل قائلا :

— مدهش ٠٠ رجل فتان ٠٠ أوسطى ماهر ، صنايعى حقا .

منذ ذلك اليوم أخذ الرجل يكف رويدا عن عمليات التصليح  
والترميم وبدأ يقوم بصنع بعض قطع الأثاث وعمل الأويمة وكلما  
صنع شيئا كان يبعث على الإعجاب .

وبعد مضي عام كان قد كف تماما عن تركيب الأرجل وتصليح  
الأرفف ٠٠ وانتقلت ورشته من المندرة الى محل متسع في أحد  
الشوارع الرئيسية ٠٠ ذى واجهة زجاجية فضمة ، وقد وضعت  
وراءها بعض قطع الأثاث المعروضة للبيع .

ولم يفكر الرجل طوال تلك الفترة أن يتخذ له صبيا أو معاونا  
يساعده في عمله ٠٠ بل كان يقوم بكل العمل وحده ٠٠ حتى بدأ  
يحس أن العبء قد ثقل ، ويات انجاز الأعمال المطلوبة منه في  
مواعيدها المحدودة أمرا متعذرا ، فجلس ذات يوم يتشاور مع امرأته  
ويسألها رأيها في أن يتخذ له معاونا يحمل عنه بعض العناء .

وكانت المرأة في قرارة نفسها تفضل لو أن زوجها اكتفى بمندرته  
الصغيرة وعمله المحدود ، فقد كانت تكره أن تراه متعبا مكودا وكان  
يتملكها نحوه شعور بالعطف والحنان ، شعور اشبه بشعور الأم

نحو ولدها وهى تراه ينهك نفسه فى الدروس والاستذكار ، ولقد كان الرجل فعلا أشبه بابن لها ٠٠ ابن فنان نابغة لا يصلح كغيره من الفنانين فى أعمال التعامل والادارة والتجارة ، فهو لا يجيد الحساب ولا يذكر المواعيد ، ولكنه ، بأدوات النجارة فى يده ، ويقطعة من الخشب أمامه ٠٠ تسرى فى أصابعه قوة سحرية ومهارة فائقة ٠٠ فيفعل بها العجب العجيب ٠٠ انه رجل فنان ٠٠ كما يشهد بذلك كل من تعامل معه .

وكانت المرأة تسد بأمومتها ذلك النقص فكانت تقوم عنه بأعمال الحساب وتذكره بالمواعيد ٠٠ وكانت تعتقد أن العمل يمكن أن يسير على هذا المنوال وأنهما لن يكونا فى حاجة الى معاونة أحد ، حتى بدا لها الرجل فى ذلك اليوم وقد أصابه الهزال من فرط الانهاك وزاد جسده نحولا وضمورا .

وتحسست المرأة رأسه برفق ، وربتت على ظهره بحنان كأنه طفل صغير وقالت له :

— أجل ٠٠ انك لا تستطيع أن تتحمل العبء كله ٠٠ لا بد أن يكون هناك من يعاونك على الأقل فى أعمال النجارة ، على أن تقوم أنت بالتشطيب وعمل الأويمة ، فلا أضل هناك من يستطيع عملها مثلك .  
وابتسم الرجل ، فقد سره أن تمتدح المرأة عمله ، وأن ترى فى عمله فنا لا يستطيع غيره أن يفعله ٠٠ ولقد كان كثيرا ما يمتلكه العجب من أنها رغم جهلها بالعمل نفسه ، لها عين بصيرة نافذة تستطيع أن تميز بها العمل الجيد . وكان يحس أن أكثر ما يجب اليه امرأته هو فرط احترامها لعمله ، وتقديرها له .

كانت اذا ما أبصرته قد انتهت من احدى قطع الأثاث وأتم حفر نقوشها تقبل عليه باعجاب مفرط وتتحسس نقوشها بأصابعها برقة ورفق كما تتحسس الأم رموش طفلها المستغرق فى نومه . وعندما

كانت تجرب ادخال درج صنعه لاحدى المناضد ، كانت تدخله برفق .  
وتخرجه ببطء وقد أحاطته بجو مملوء بالاعجاب كأنها لم تر من قبل  
درجا يركب فى منضدة .

لشد ما كانت المرأة تقدر نبوغ الرجل !! . وكانت تلك هى  
الرابطة السحرية التى تشد أحدهما الى الآخر .  
وهكذا اتفقا على احضار من يعاونه ، ولم يبق الا الاتفاق على  
الشخص الصالح .

اقترحت المرأة أن يتخذ له معاوننا طيب الخلق ، هادىء الطبع ،  
وأن يجعل منه أخا وزميلا ، لا معاوننا فقط . ولم يكن للرجل سوى  
هذا الرأى ، ولم تمض لحظات حتى كانا قد اتفقا على أن خير من  
يصلح للمهمة هو الأوسطى على الشحط ورأت المرأة أن يدعوه الى  
الغداء من الغد ، ثم يعرض عليه العمل معه .

وشعرا أنهما قد انتهيا من حل مشكلة عويصة . وزادت  
نفساهما رضا على رضا . وقاما الى القراش فرقدا فى هدوء .  
ومد الرجل يده فى الظلمة يتحسس بها شعر المرأة ووجهها ، وأحست  
المرأة بيده فوق شفتيها فقبلتها بحنان ، ثم دفن رأسه فى صدرها  
وراح كلاهما فى نوم هادىء عميق وسادت السكينة حول النفسين  
الراضيتين .

وفى اليوم التالى حضر الأوسطى على الشحط ، وكان اسما على  
مسمى ، فلقد كان شحطا حقا ، ونظرت اليه المرأة وقارنت بينه وبين  
زوجها الضئيل التحيل ، واقتنعت بأنه ليس هناك أسهل من أن يطويه  
بين يديه ، ويلقى به من النافذة .

وبقدر ما كان الأوسطى على ، شحطا فى جسده ، كان قزما فى  
نفسه ، فقد كان رجلا بسيطا ، طيب القلب ، شديد الخجل ، كثير  
الصمت ، لا يتكلم الا بقدر ما يسأل ، وانتهى ثلاثتهم من الغداء وقد

اتفقوا على كل شيء ، دون أن يجدوا أية مشقة فى الاتفاق ! ، وهل يصعب الاتفاق الا على ذوى النفوس الخبيثة الطامعة التى تملؤها الأنانية ويفزوها الحقد ؟

وهكذا احتل الأوسطى على مكانه فى المحل ، فأخلى له ركنا حيث وضع البنك الخاص به وبدأ عمله فى صمت وسكون بجوار الأوسطى ابراهيم وضاعفت الست زكية كمية الغداء التى كانت تحملها فى الظهيرة الى المحل ، فلقد أصر الزوجان على أن يشاركهما الأوسطى على غداءهما ٠٠ ولم لا والمثل يقول : اللقمة اللى تقضى واحد تقضى اثنين ، ما دامت النفوس قانعة ٠

وكان الزميلان ، كما سبق القول ، من نوع صامت لا يتحدث ٠٠ فكنا يقضيان طيلة يومهما دائبين على العمل ، مغرقين فى الصمت ٠٠ لا يكادان يتبادلان من الكلمات الا ما تحتّمه الضرورة ٠٠ ويظل الشحط منحنيا على البنك بجسده الضخم لا يكاد يرفع رأسه الا حين تحضر المرأة بالغداء ، فيذهب فى سكون يغسل يديه على الحوض - ولكن ليس قبل أن يتم المعلم ابراهيم غسل يديه ويدعوه الى التفضل -- ثم يجلس فى حياء الى المنضدة التى رصت عليها الصحون ، ويبسمل قبل أن يضع فى فمه اللقمة الاولى ثم يحمد ربه بعد اللقمة الأخيرة ٠

ومرت الأيام بالزميلين ٠٠ فازدادت بينهما الثقة ٠٠ وتوثقت عرى الصداقة ، ومع ذلك فلم ترفع الكلفة بينهما ، فقد كان كلاهما حيبا خجولا ٠٠ واستمرت حجب الاحترام التقليدية تقوم بين أحدهما والآخر ٠٠ ولم يجسر واحد منهما أن ينادى الآخر باسمه مجردا من لقب معلم أو أوسطى ، وما تحدثا قط فى الأوقات القليلة التى كانا يخرجان فيها من صمتهما ، الا فى شئون العمل أو فى أشياء عامة تافهة ٠٠ أما شؤونهما الخاصة فما حاول أحدهما أن يخوض فيها.

قط ٠٠ اللهم الا مرة واحدة كانت الاولى والاخيرة ٠

مرة واحدة حاولت المرأة أن ترفع فيها الكلفة بينهما وبين الأوسطى على وكان ذلك عندما دعواه ذات مساء عقب انتهاء العمل الى العشاء معهما ؛ وجلس ثلاثتهم يتناولون الطعام في سكون لا يقطع صمتهم الا أحاديث متقطعة عن أحد الزبائن ، أو عن حجرة نوم يجب أن ينتهى منها بسرعة ، وعن تجديد بعض أدوات المحل ٠

وانتهى العشاء وقامت الست زكية القهوة ، وبدأ المعلم ابراهيم يخرج صندوق الدخان ويلف سيجارة له وأخرى لصاحبه قائلا :

— سيجارة عند العشاء هي أمتع سيجارة ٠٠ تساعد على الهضم وتزيل تعب اليوم ٠

وأخذ الرجلان ينفثان الدخان ، وتصاعدت حلقاته في جو الغرفة ، ووصل بعض دخانها الى أنف المرأة فشمتهما بلذة وقالت ضاحكة :

— لقد تعودت أنا الأخرى شم سيجارة المساء ، انها شيء ممتع حقا ٠

وانتهى الأوسطى على من تدخين سيجارته ، ونهض من مقعده محاولا الانصراف ، فقال له المعلم ابراهيم :

— بدرى يا أوسطى ٠

— لقد حل ميعاد النوم ٠٠ اني كالأطفال لا بد أن أكون في فراشى قبل التاسعة ٠

وضحكت الست زكية وقالت للرجل في صوت رقيق :

— أما أن لك أن تتزوج يا أوسطى على ٠٠ انك في حاجة الى من يؤنس وحشتك ٠٠ ان رحلة الحياة طويلة شاقة ، والطريق مظلم موحش ، ولا بد لكل انسان من رفيق يعينه على مشاق السفر ووحشة الطريق ٠

ولم يجب الرجل ، وأطرق ، ثم خيمت على وجهه سحابة اكتئاب ،

وتملكه الخجل ، وأسرع فى توديع الرجل وزوجته فى شئ من الارتباك . وهبط الدرج فى عجلة ، وبعد لحظات كان قد احتوته ظلمة الطريق ووحشته .

لقد نكأت المرأة بقولها جرحا خيل اليه أنه اندمل . لقد فكر الرجل فى الزواج منذ زمن طويل ولكن السنين توالى والمسألة لا تتعدى طور التفكير . . . لقد أضحى الآن فى الأربعين . . . ان الوقت متأخر . . . لقد قطع معظم الطريق وتعود وحشته . . . وهو يستطيع أن يتم السير وحيدا . . . ثم ان هناك سببا أساسيا . . . سببا لم يحاول أن يتعمق فى بحثه أو يسأل نفسه عن معناه وعلته ومصدره ، ولكنه كان يعرف أنه قائم . . . وكان موقنا به ، واثقا من وجوده . . . وهو انه لا يتصور قط أنه يستطيع الذهاب الى الست زكية وأخبارها أنه سيقزوج مخلوقة أخرى .

### ★ ★ ★

بعد أسبوع من تلك الليلة استيقظ أهل الحى على ضجيج وصراخ ، وشاهدوا السنة اللهب وقد تصاعدت من احدى الدور وتكأأ القوم على الحريق يحاولون اطفاءه وحضر رجال المطافئ بعد فترة قصيرة ، ولم تخدم النار الا بعد أن حرقت الدار وبضع دور مجاورة . وهبط المعلم ابراهيم من داره ، واندفع بين الناس مستطلعا الأمر ، ووقف أمام الدور المحترقة متطلعا ببصره فى دعر شديد . . . وقد أحس برعدة تسرى فى جسده . . . لقد كانت دار صاحبه بين الدور المحترقة .

واندفع يشق طريقه بين جمهرة الناس محاولا الوصول الى الدار ، ولكنه لم يسر خطوة حتى وجد الأوسطى على قد وقف بجسده الضخم ، عارى الرأس حافى القدمين . . . وقد أمسك فى احدى يديه منبه ، وبدا عليه زهول شديد .



وربت المعلم ابراهيم على ظهره برفق ، وسحبه من ذراعه ليخرجه  
من بين الجماهير ، فانتفض الرجل بشدة ، وأفاق لنفسه وقال فى  
صوت هامس مبجوح :

– لقد احترق كل شيء .. فقدت كل ما أملك من حطام الدنيا :  
غراشى ، وثيابى ، ونقودى .. لم أعد أملك الا هذا .. وأشار الى  
المنبه .

وأحس المعلم ابراهيم أن قلبه يدمى حزنا على صاحبه ، ولأول  
مرة ذهب عنه حياؤه ورفع الكلفة ، فخطب الرجل باسمه دون أن  
يسبقه لقب « أوسطى » قائلا له :

– لا تحزن يا على .. احمد الله على نجاتك .. قضباء أخف من  
قضاء .. هيا بنا .

وسار الرجل بجواره مطأطئ الرأس ، وأردف المعلم ابراهيم  
يقول :

– لا تحمل هما .. ان بيتى بيتك .. ان لدينا حجرة زائدة تستطيع  
ان تستعملها للنوم حتى تسوى أمورك .

ولم يكن الرجل فى حالة تسمح له بالاعتراض على أى شيء ،  
ووصل الى دار صاحبه وهو ذاهل شارد ، حتى وقف أمام الست  
زكية ، فبدأ يعود الى وعيه ، وتملكه الخجل من منظره ، وحاول أن  
يعتذر عن الدخول ، ولكن المرأة قالت له بصوت رقيق :

– اتفضل يا أوسطى على .. احمد الله على سلامتك .. ان الدار  
ارك ، وأهلها أهلك .. ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صدى القلوب ..  
يعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا .

ودخل الرجل الى حجرة الجلوس بعد أن أعدت له المرأة الأريكة  
التي بها حتى يرقد عليها ، وودعه المعلم ابراهيم بقوله :  
– تصبح على خير .. لا تحمل هما .. يمكنك استعمال الحجرة

حتى تجد لك بيتا ، وفى الصباح تستطيع أن تبتاع ما يلزمك من الثياب •

وأغلق الباب عليه ، وبعد لحظات احتواه الفراش بجوار امرأته وتلمس أحدهما يد الآخر فى الظلمة وهمست المرأة :

— يجب أن نعامله بقدر ما نستطيع من الرقة •• يجب أن يشعر أنه فى بيته •• أليس كذلك ؟

— بالطبع •• انى سأعطيه فى الصباح بضعة جنيهاً يبتاع بها ما يلزمه •• انه يستحق كل خير •• ولا أظننى أستطيع العمل بدونه •

— انه وحيد فى الحياة ، وليس هناك قلب يحس مصابه ويشاركه أحزانه وأشجانه •• ان الوحدة شاقة مضمينة •

وتحسس الرجل شعر امرأته ووجهها فأحس بقطرات من الدمع تندى جفنيها فرفع يدها برفق الى شفتيه وهمس قائلاً :

— كيف يكون وحيداً •• من تدمع من أجله مقلتك ؟

وفى اليوم التالى جلس الثلاثة للغداء ، وقال الأوسطى على انه سيذهب عقب انتهاء العمل للبحث عن شقة •• وأجابه المعلم ابراهيم :

— لا داعى للعجلة •• ان الحجرة خالية •• ويمكنك استعمالها كما تشاء •

ثم نظر الى امرأته بقلق خشية ألا تكون موافقة على رأيه ، ولكن المرأة ابتسمت وقالت مؤمنة على قوله :

— أجل •• أجل •• لا داعى للعجلة •• ان وجودك بيننا لا يثقل علينا قط •

ومرت الأيام بعد ذلك والأوسطى على يقين مع المعلم ابراهيم فى حجرة الجلوس ، وبدأ الرجل وزوجته يسميان الحجرة : حجرة الأوسطى على بدلا من حجرة الجلوس •• ولم يعد هناك من يفكر فى

خروجه ٠٠ وكان آخر مظهر لاستيطان الرجل الدار عندما وضع المنبه على البوفيه فى الصالة قائلاً فى استحياء :

— هل تسمحان بوضعه هنا حتى يمكن لثلاثتنا استعماله ؟ انه الشيء الوحيد الذى أبقاه لى الحريق ٠٠ لقد ورثته عن أبى ٠٠ انه منبه مخلص أمين لا يتوقف عن عمله لحظة ، لا يقدم ولا يؤخر •

وضحك الثلاثة ٠٠ واتخذ المنبه موضعه فوق البوفيه ٠٠ يدق دقاته المنتظمة الهادئة ٠٠ الشديدة الشبه بدقات قلوب أهل الدار ، القلوب الآمنة المنتظمة الراضية بالقائمة ٠٠ دقاته الهادئة التى ينساب معها زورق حياتهم السائر فى لين ورفق ٠٠ السائر وكأنه غير سائر ٠٠ ينزلق فى بطء وتؤدة فى مجرى الزمن ، وكان راكبيه — من فرط نعومة السير — لا يحسون الليالى تمر والآيام تتعاقب •

واستمر المنبه يدق مع السنين فى الدار الساكنة ، واستمر الزورق يسير ، واستمر الركاب الثلاثة فى الكبر سوياً ٠٠ كأنهم ثلاثة أشجار قد تجاوزت وتشاركت فى خصب الأرض الطيبة ونمت كل منها فى طريقها آخذة نصيبها من الماء والشمس والهواء حتى دب فيها الهرم وأخذت تتساقط أوراقها •

وكان المعلم ابراهيم هو أكثر الثلاثة تعرضاً لفعل الزمن ، وأسرعهم هرماً واسقاطاً لأوراقه ، فلقد انحنى منه الظهر ، وتهدج الصوت ، وابيض الشعر ٠٠ وثاقلت مشيته وقل جهده ، وان كانت أصابعه استمرت كما هى ماهرة فنانة ، أما الست زكية فقد ترهل جسدها وازدادت بدانة ٠٠ وكلما ازداد بها الهرم ازدادت نفسها طيبة وقلبها رقة وجمالاً • وازداد حبها للناس وعطفها عليهم ٠٠ لقد كانت دائماً تتلمس لأخطائهم المعاذير وتترقق بهم وتحنو عليهم • أما الأوسطى على الشحط فقد استمر شحطاً كما هو ، محافظاً

على قوته وضخامته ٠٠ ما تراخت عضلاته ولا انحنى ظهره ٠٠ بل استمر كما هو ٠٠ متين البنيان ، عريض المنكبين .

مضى عشرون عاما على يوم الحريق ٠٠ عشرون عاما والرجل يعيش فى الدار كأنه واحد من أهلها ، والزورق يسير بثلاثتهم فى هدوء ورفق ، دون أن يطرأ على حياتهم أقل تغيير حتى كان ذات يوم بلغ أحدهم نهاية رحلته فانزلق من الزورق .

مات المعلم ابراهيم وكان ذلك فى يوم أحس فى صبيحته ببعض التعب وذهب الى الحانوت كعادته ، ولكنه عاد الى الدار فى الظهر ، وأنبأ امرأته أنه متعب بعض الشيء ، وأنه فى حاجة الى قليل من الراحة . وركد على الفراش وقد بدا شاحب الوجه ، منهك الجسد ، وأخذ يرقب نظرات امرأته القلقة ، وعلت شفتيه ابتسامة رقيقة وسألها قائلاً :

— ماذا يقلقك ؟

— لست تبدو كعادتك ٠٠ يجب أن نحضر طبيباً .

— لا ٠٠ لا ٠٠ إن المسألة لا تستحق ٠٠٠ انى أريد الراحة ٠٠ لا شيء أكثر من هذا .

ومد يده فأمسك يدها وشد عليها بحرارة ، وتصاعدت من أسفل الدار صوت زمارة عم بهنس ٠٠٠ وانطلقت منها الزغاريد كما تعودت أن تنطلق منذ عشرات السنين ٠٠ لقد هرم الرجل ٠٠ وما هزمت زمارته ٠٠ ولا خفقت زغاريدده .

وهمست المرأة ضاحكة :

— أسمع الزغاريد ٠٠ زغاريد فرحنا ٠٠ انها لم تخفت لحظة ٠٠

لقد كان كل يوم من أيام زواجنا عرساً .

وجذب الرجل يدها فوضعها على شفتيه وطبع عليها قبلة

شاكرا ٠٠ ثم أغمض عينيهِ وقاضت روحه صاعدة الى السماء  
ناعمة هائلة ٠٠ كما كانت فى الأرض قريرة راضية ٠

وعندما مات الرجل انتقل الأسطى على من الدار فاستأجر حجرة  
فى منزل قريب ٠ واستمر يؤدى عمله فى المحل مغرقا فى صمته كما  
كان يفعل فى حياة الرجل ٠٠ وتولت المرأة ادارة المحل ، وأخذت  
تشرف على الحسابات وعلى البيع والشراء ، ومضى عام وهى تكافح  
وتتناضل حتى أضناها الجهد وأنهكتها المشقة ، والرجل يرقبها فى  
اشفاق وخوف ٠٠ حتى كان ذات يوم رقدت فى الدار ، فذهب لزيارتها  
وجلس امامها مطأطئ الرأس ، وقد تملكه الخجل كعادته ٠

ومضت فترة صمت طويلة فتح الرجل فاه ، وهم بالكلام عدة  
مرات ولكنه أغلقه ثانية ، وأخذ يتنحج مرتبكا ، وأخيرا جمع أطراف  
شجاعته وبدأ الحديث :

— لقد أسديتما الى جميل لن أنساه مدى العمر ٠٠ لقد آويتما  
وأعنتما على الحياة ، ولقد عاملنى زوجك بأكرم ما يعامل به  
انسان ، وكم أود لو استطعت أن أزد اليه بعض صنيعه ٠٠ انك فى  
حاجة الى رفيق يعينك على السير بقية الحياة ٠٠ انى فى الستين  
من عمرى ولقد انطقت فى نفسى جذوة الشباب وما يتبعه من احساس  
بالحب ٠٠ بل لا أظن لمثلنى أن يتكلم فى مثل هذه المسائل ، ولكن كل  
ما أبغيه هو أن أكون معك فى الدار حتى أفيك السوء ، وأذهب عنك  
الوحشة ، وأن أتولى عنك شؤون المحل وأرفع عنك عبء العمل ٠  
ونظرت المرأة الى الرجل المطرق ، وخيل اليها أنها تبصر أضواء  
الاخلاص تشع من قلبه ٠

أن زوجها الراحل لو استطاع النطق لشكر الرجل على جميل  
قوله ، ولسره أن تجيبه الى مطلبه ، وأى خطأ هناك فى أن يتعاونوا فى  
خريف الحياة !! أى خطأ فى أن يركبا زورق الحياة سويا فيتهادى

بهما حتى يذهب بكل منهما الى نهايته ؟ ألم تقل هي نفسها : ان الله يبعث بالشدائد ليجلو صدا القلوب ، ويعلمنا كيف يعين بعضنا بعضا .

وتزوج العجوزان ، وعندما جمعتهما الدار سويا أول مرة بعد وفاة المعلم ابراهيم عقب عودته من المحل فى المساء ، جلسا حول منضدة العشاء كما تعودا أن يجلسا فى الأيام الغابرة ، وحملت النافذة الى المرأة صوتا حبيبا الى سمعها ، هو صوت الزغاريد المنطلقة من زمارة عم بهنس ، وترقرقت الدموع فى مآقيها . . . ولانت بالصمت . . . لقد كانت تلك الزغاريد خاصة بها هي والمعلم ابراهيم فقط . . . ان الأوسطى على لا يعلم عنها شيئا . . . لقد كان لها عرس واحد . . . هو عرسها مع ابراهيم ، ولقد كانت تلك زغاريده ، وستبقى زغاريده حتى نهاية العمر . . .

وانتهيا من العشاء . . . وأخرج الأوسطى على علبة الدخان ولف له سيجارة وأخذ ينفث الدخان حلقات فى الجو ، ووصلت رائحة الدخان الى أنفها ، ونظر كلاهما الى المقعد الخالى ، وبدأ كل شيء كما كان منذ أعوام ، وكان المعلم ابراهيم ما فارقهما قط ، ووصلت الى أنتيهما دقائق المنبه .

ونهضت المرأة قائلة :

— أظن الوقت قد حان للنوم ؟

واتجهت المرأة الى حجرتها التى اعتادت أن تنام فيها هي والمعلم ابراهيم ، واتجه الرجل بدوره الى الحجرة التى تعود أن ينام فيها وألقى كل منهما الى الآخر نظرة ملؤها الرضا والقناعة . وقال الرجل كما تعود أن يقول دائما :

— تصبحى على خير يا ست زكية .

وأجابته المرأة كما تعودت أن تجيب دائما :

– تصبح على خير يا معلم على .

وسادت السكينة الدار وخيم الصمت .

ورقدت نفوس أهلها قريرة ناعمة ، ولو جسدت الأرواح ، لشاهد

الناس روح الزوج الراحل تحوم حول الدار وهي أنعم الأرواح بالآ

وأكثرها رضا .





# رجل كافر

حدثني صاحبي ، وقد شرد بذهنه وبصره . وزفر زفرة حارة  
موجعة ٠٠ قال :

– كثيرا ما أسائل نفسي : لم كان أحب الأشياء اليها في هذه  
الحياة هو أضرها بها . وأشدّها تحريما عليها ؟ ! ولست أدري والله  
أيهما كان أسبق من الآخر . وأيهما كان مصدر الخطأ ؟ ٠ أهو شغف  
الانسان بكل ما حرم عليه وأضر به . أم تحريم الطبيعة ووضعها  
الضرر والأذى فيما شغف به الانسان ؟ أجل ٠٠ من هو أصل الخطأ ؟  
الانسان الذي أولع بالضرر ، أم الطبيعة التي جعلت أكثر ما أولع  
به الانسان مضرا مؤذيا ؟ !

على أية حال ، وسواء أكان هذا أسبق أم ذاك ٠٠ فما من شك  
هناك في أن أصل شقاء الانسان ومصدر بلائه هو ذلك التناقض بين  
ما يشتهي وما هو خير له ، أو بين ما يلذ له وما يجب عليه ، وما من  
شك هناك أيضا في أنه لو عدل أحد الطرفين – الانسان أو الطبيعة –  
عن رأيه ، وعكست آيته ، فعدل الانسان عن شغفه بكل ما حرم عليه  
وسبب له الضرر والأذى ، فكره الخمر مثلا ، أو كرد التطلع الا الى

المرأة التي أحلت له ، أو لو عدلت الطبيعة من جانبها فجعلت في  
الخير شفاء للناس وصحة لأبدانهم . ولم تجعل التطلع الى النساء  
اثماً وفجوراً ٠٠ أجل ، لو حاول الانسان أن يخضع للطبيعة ،  
أو لو حاولت الطبيعة أن تتحور لكي ترضى الانسان ، أو لو التقيا في  
منتصف الطريق ٠٠ فأية سعادة كانت تعم الانسان وقتئذ ؟ وأي بلاء  
كان يرفع عنه ! ؟ ٠

ولكن أية فائدة هناك من تمنى المستحيل ؟ أية فائدة هناك وحياة  
الانسان سلسلة من الشغف بما يضره ، والتطلع الى ما يؤذيه ؟ ٠  
فهو اما أن يفعل فيصيبه الضرر الناتج منه ، واما ألا يفعل فيصيبه  
آلم الكبت وشقاء الحرمان ٠٠ كل ما في الحياة كذلك ٠٠ منذ ولد  
الانسان حتى يموت ٠٠ فاللعب عنده لذيذ ، ولكن مذاكرة الدروس  
- وهي أثقل الأشياء على نفسه - هي التي تقيده ، وشرب المياه  
المثلجة في الصيف لذيذ ، ولكنه من أضر الأشياء ٠٠ والنساء  
لذيذات ، ولكنهن متعبات مؤذيات ٠٠ والخمر والميسر لذيدان ، ولكن  
فيهما كل الشر والتلف ٠

اني لأحس أحيانا ببعض شديد لهذه الحياة ، اني يخيل الى اننا  
لم نخلق فيها الا لنشقى ٠٠ فالشقاء هو الأصل في هذه الحياة ٠٠  
اما لحظات السعادة الخاطفة التي تتاح لنا بين هنيهة وأخرى ٠٠  
فليست الا قطرات تعيننا على استمرار السير في قفر الحياة وجديها  
٠٠ حتى لا نسقط اعياء في منتصف الطريق ٠٠ أو هي سراب خلب  
يغرينا بتحمل الآلم والشقاء حتى لا نفر من الحياة ونتركها غير  
أسقين ولا نادمين ٠

في ذات مرة من هذه المرات ٠٠ التي تبدو لنا الدنيا فيها كثيفة  
مظلمة حقيرة تافهة ٠٠ والتي يحس فيها الانسان زهداً في الحياة  
ورغبة في الهرب منها ٠٠ والتي ينظر المرء فيها فلا يرى أمامه حتى

هذا المراب الكاذب الذى يتعلل به ، والذى يغريه باستمرار السير .  
 فى ذات مرة من هذه المرات خرجت من الدار . . وأنا أحس على  
 كتفى عبئا ثقيلا من هموم الحياة . . وأحس بنفسى ضيقا وتبرما ،  
 ودلفت الى عربتى الراقفة أمام الباب وانطلقت بها فى طريقى الى  
 الصيدلية لأحضر الدواء الذى كتبه الطبيب فى التذكرة التى طويتها  
 فى جيبى منذ لحظات .

وأمسكت بعجلة القيادة ، ومرقت فى الطريق الواسع المضاء . .  
 وكان قد خلا الا من العربات المجنونة التى تمر بى كلعج البرق أو من  
 عربات الأوتوبيس بعجيجها وضجيجها كأنها معركة متقلبة .

وأخذ ذهنى يسبح فى تلك الظلمات التى لفته ، وتتابعته عليه  
 الأفكار الكثيرة التى أحاطت به . . وأبصرت ابنى وقد رقد مريضا  
 بين ذراعى أمه .

ابنى . . . ابنى أنا !! . . يا للسخف ويا للحمق الذى يحذونا  
 الى اتجايب نرية فى هذه الأرض . . يا للجنون الذى يدفعنا الى انسال  
 أبناء . . نشقى بهم ويشقون بأنفسهم ! . كم كنت شغوبا بأن أرى لى  
 ابنا . . ترى لم كان منى هذا الشغف ؟ أترانى كنت أخشى أن أموت  
 فتحرم الدنيا النسل الصالح ؟ ترى أكننت أخشى على هذه الثروة  
 الهائلة ألا تجد لها وريثا ؟ أى حمق حدا بى أن أضع على كاهلى  
 عبئا . . وفى يدى قيذا ، وأن أضيف الى أسباب الشقاء فى هذه  
 الحياة أسبابا جديدة ؟ بل أى حمق دفعنى الى الزواج ؟ . بل أى  
 حمق ما زال يدفع الناس حتى الآن الى الرغبة فى الزواج ، رغم تلك  
 التجارب القاسية التى مرت بمن سبقوهم والقوا بأنفسهم الى التهلكة  
 من قبلهم ؟ . . ليس أعجب من أننا لا نجد زوجا الا ويشكر من  
 الزواج ، ولا عزيا الا وهو يرغب فى الزواج !  
 ما أشبه الزواج بمصيدة . . وما أشبهنا قبل الزواج بفار خارج

المصيدة يغرينا منها ذلك الطعم الشهى اللذيذ ، السهل المنال ..  
فندخل المصيدة .. و نتمتع بأكله لحظة أو لحظات ، ولا نكاد ننتهي  
من أكله حتى نتطلع الى خارج المصيدة ، زاهدين فى كل ما فيها ،  
وينفوسنا لهفة الى الخروج منها .. ولكن أنى للفار أن يخرج من  
المصيدة ؟

هذا هو أول قيد يكبل به الانسان نفسه طائعا مختارا ، أما القيد  
الثانى والثالث والرابع .. ففى الذرية وحدها كفاية !

ولقد وضعت فى يدى القيد الأول ، ثم تلهفت على القيد الثانى فلم  
يخزل به الله على ، وأضحى لى ابن ، وأصبحت أبا !

خيرونى أيها الآباء .. من منكم قد مر به يوم دون أن يعانى من  
أبنائه ؟ وخبرونى لو جمعنا كمية الشقاء والحزن التى يسببها لنا  
الأبناء ، ووضعناها فى كفة مع كمية المتعة أو الفرح التى يسببونها  
لنا .. أيهما ترجح ؟ ! قولوا الصدق أيها الآباء المساكين !

أترى تلك الأفكار العاصفة الثائرة ، التى طافت بذهنى وقتذاك ،  
أكان منشؤها حزنى على ابنى لأنه مريض ؟ لا .. لا أظن .. فما كان  
مرضه بالذى يستدعى منى ذلك الحزن ، فقد كان كل ما به وعكة  
خفيفة ، أغلب ظنى أنها سرعان ما تزول ، وأغلب ظنى أننى لو كنت  
أصبت بمثلها ، وأنا فى مثل سنه لما استدعت أُمى طبيبا ، ولما احتاج  
الأمر الى دواء ، ولكن سبب ما بى من حزن ويأس انما هو أمه !!  
أمه التى لا تكاد ترى وعكة ألت به أو ألتا أصابه مهما كان طفيفا ،  
حتى أراها تسرع بالترمو متر الى فمه .. فلا تكاد تبصر به شرطة  
أو شرطتين ، حتى أرى الاكتئاب قد علا وجهها ، والبؤس قد جلله ..  
فكأننا قد فجعنا بموته .. من يصدق أنى فى بعض هذه الأحيان لم  
تكن تزعجنى قط فكرة موته - موت ابنى - حتى أضع حدا لذلك  
الاكتئاب والحزن الذى لا يكاد ينتهى ؟

وفى هذه الليلة خرجت لأحضر له الدواء ٠٠ وبنفسى من التبرم ،  
 بالحياة ، والزهد فى العيش ، ما جعلنى أتعجب من حرصنا على  
 البقاء فى هذه الدنيا ، واصرارنا على أن نتحمل كل ما فيها من شقاء  
 حتى النهاية ٠٠ ولكنى لم أستطع الا أن أهز راسى وأواصل سيرى  
 بالعربة ٠٠ حتى وقفت أمام الصيدلية .  
 وأعطيت الرجل التذكرة ، فأخذها من يدى ونظر اليها لحظة ثم  
 قال : « بعد نصف ساعة » .

وتركته وقلت لنفسى : « اذهب الى المنتدى الذى تعودت الجلوس  
 فيه ، ثم أحضر اليه بعد نصف ساعة » .

ولم يكن المنتدى يبعد كثيرا عن الصيدلية ، فلم تمض لحظة حتى  
 كنت أجلس فى ركن هادئ من أركانه متكئا على مقعد مريح ، سابحا  
 بعينى فى السماء المزدانة بالنجوم ، وكانت تلك خير طريقة أطرد  
 بها هموم الحياة عندما تتزاحم على صدرى ولا أجد من يعاوننى  
 على طردها .

ولكن السكون لم يطل ٠٠ فقد قطعه صوت سقوط شيء بجوارى  
 على الأرض ٠٠ أغلب ظنى أنه كتاب سقط عن منضدة ٠٠ وتلفت  
 فوجدت كتابا على الأرض ٠٠ ورفعت بصرى ٠٠ فوجدتها ٠٠ هى ٠٠  
 وقد جلست على مقعد بجوار المنضدة ٠٠ وأصابتنى دهشة ٠٠  
 فما كنت أشعر أن أحدا بجوارى ٠٠ وما كنت أتوقع قط أن أجدها  
 فى المنتدى فى ذلك الوقت .

لا تتعجل بسؤالى من تكون « هى » ٠٠ فستعرفها من حديثى بعد  
 لحظات ٠٠ لقد مددت يدي-بسكون وأمسكت بالكتاب ، ثم وضعته  
 على المنضدة ٠٠ وسمعتها تنتم بكلمة شكر ، فأشرت لها برأسى  
 « العفو » ، ثم عاودت الجلوس كما كنت ٠٠ كما كنت من حيث المظهر  
 فقط ٠٠ أما من حيث الاحساس والشعور ، فقد تغيرت كثيرا عما

كنت ٠٠ لقد أحسست بشيء من الراحة والهدوء ، وأخذ الضيق والتبرم ينقشعان عن نفسى الى حد ما ٠

وجعلت أختلس النظر اليها من طرف عيني ٠٠ فبدأ لى وجهها فى الضوء الباهت الذى اختلطت به الظلمة وهو أشد سحرا وفتنة ٠٠ وتمنيت لو استطعت أن أجاذبها الحديث فقد كنت أرى فى ذلك خير مبدد لسحب اليأس والضيق المخيمة على نفسى ، ولكنى لم أحس فى نفسى القدرة أو الجراءة على أن أكون البادئ بالحديث ، ولم يكن ذهنى فى حالة من الصفاء بحيث يسعبنى بشيء طلى أجعله موضع حديث ٠ ولكنها – لدهشتى الشديدة – بدأت هى الحديث بلا ترقب منى ولا توقع ، بل كانت طريقتها فى الحديث تنبئ عن اللهفة والرغبة الملحة ، فقد مدت يدها الى بالكتاب قائلة :

– هذه قصة قد ظهرت حديثا لستيفن زفيج ٠٠ لعلك قد قرأت له ؟  
– لقد سمعت عنه ٠٠ ولكن لم أقرأ له ، اذ لا أجيد من وقتى فسحة ٠

وخيم الصمت برهة ، ولكنها كانت – كما خيل لى – مصرة على ألا ينتهى الحديث بهذه السرعة ، فعادت تقول :  
– الجو جميل جدا هذه الليلة ٠

ولم أكن أحس أن الجو كما قالت جميل ، فما ترك لى ذلك الحزن الذى كنت غارقا فيه فرصة للتفكير فى الجو أو الاحساس بجماله ٠٠ فلذت بالصمت ٠

ولكنها أصرت على الحديث ، وعلى ألا تقنع بالصمت فسمعتها تتساءل فى صوت به شيء من اللين : حزين ؟ !

وهنا أصبح الأمر أكثر مما أحتمل ٠٠ فقد كان كثيرا على أن أسمع صوتها الرقيق اللين يسألنى – أنا الذى لا أتلهف على شيء لهفتى على سماع صوتها – عما اذا كنت حزينا ، ولم أستطع أن

أمنع هزة عرنتى ونشوة سرت فى رأسى وتمنيت لو أفضيت إليها ،  
 يبعض احزانى ، فمن غيرها أقدر على منحى جميل العزاء ؟ ومن  
 غيرها أجدر بأن يهب نفسى حلو الشفاء من مر الشقاء ؟  
 وقلت بصوت خافت كأننى أحدث نفسى : أجل حزين !  
 واقتريت بمقعدها منى قليلا وأجابيت فى رقة :

— وعلام الحزن ؟

— وعلام غير الحزن ؟!! وأى شئ يمنعنا من الحزن فى هذه الدنيا  
 التى لا يعرف الانسان ماذا يريد ، والتى لا يفتأ يتطلع فيها الى  
 ما لا يستطيع نيله ؟ فهى سلسلة من التطلع والحرمان .. والآلام  
 والأحزان :

— هذا كلام لا يسهل فهمه .. أو قد يكون غير ذى معنى .. أو هو  
 فلسفة حزينة مبعثها ضجر نفسى .. قل ما يحزنك بالضبط ؟ .. أو  
 حدد مثلا لذلك الذى تدعوه تطلعا وحرمانا .. الام تتطلع ؟ ! ومم  
 أنت محروم ؟

· وكانت لمست بكلماتها هذه موضع العلة فنكأت القرح وأدمت  
 الجرح وكان فى سؤالها هذا مفتاح صدرى المغلق على ضيقه وقلقه .  
 وخطر لى عندئذ أن أفرغ كل ما فى جوفى ، وأن أقول ما لا يخطر  
 لها قط على بال ، هذه فرصة قل أن وجود يمثلها الدهر .. فهى أنتى  
 قد سألتنى .. فلا ضير على ان أجبت سؤالها .

ولكنى ترددت ، وخشيت العاقبة ، فقد كان هذا الذى أنوى أن  
 أقوله .. هو الجنون بعينه .. أو هو كلام لا يمكن أن يقوله مثلى  
 مثلها ، لمجرد سؤالها عما يحزننى ، ومع ذلك ومع اعترافى بأنه عمل  
 جنونى .. وجدنتى أنطلق قائلا :

· — تريدان مثلا !! .. أتراك جادة فى قولك ؟ .. أتريدان حقا أن  
 تعرفى مثلا لما اتطلع اليه ، ولما أنا منه محروم .. أتريدان ذلك حقا ؟!

إذا فخذى مثلاً لذلك ٠٠ أنت ؟! أنت نفسك ؟! أنت نفسك مثل لما  
 أطلع اليه ولما أنا محروم منه !! لا تدهش ، وعلى الأصح لا تتصنعى  
 الدهش ٠٠ منذ عام وأنا أطلع اليك ٠ لا أقول أحبك ، فكلمة الحب  
 كلمة مائعة مطاطة ٠٠ بل أقول أطلع اليك ٠٠ وأريدك ٠٠ أجل !  
 أريدك ، هذه هي الكلمة المضبوطة ، ففي أرايتى لك يكمن الحب  
 والرغبة واللهفة والتمنى والاشتفاء ٠ منذ عام وأنا أريدك ، لا تقولى  
 اننى متزوج لأننى أعلم هذا ، ولأننى حتى الآن لم أفعل ما يشيننى  
 كزوج ولم أرتكب ما يسمونه الخيانة ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن  
 أمنع تلك الرغبة التى تتأجج فى صدرى كلما رأيته ، فذلك شئ فى  
 باطنى لا أستطيع السيطرة عليه ٠٠ وما استطعت أن أدفع عن نفسى  
 ذلك الشعور بالراحة والغبطة كلما جلست على مقربة منك أو كلما  
 رأيته مقبلة ، ولا استطعت كذلك أن أنود عن نفسى ذلك الاحساس  
 بالضيق كلما رأيته منصرفاً أو كلما افتقدته فلم أجده ٠

لقد رأيته أول مرة فى الصيف الماضى ، وانى لأذكرك تماماً  
 حينذاك كانى رأيته بالأمس فقط أو كانى أراك الآن أمامى ٠٠ وقد  
 وقفت بذلك المايوه الأسود الذى التصق بجسدك كأنما هو قطعة  
 منك ٠٠ أو كأنما قد نما معك ٠٠ ولبست فى قدميك الدقيقتين قبقابا  
 خشبيا ٠٠ يا للعجب ! أية مخلوقة كنت وقتذاك ٠٠ وأى سحر كان  
 ينبعث منك ٠٠ ومن ذلك الجسد العجيب فى لونه الأبيض المشرب  
 بخفيف الحمرة ؟ وأى فتنة أبصرتها فى ساقيك المتلئتين ، وفى تلك  
 الحسنة بساقك اليمنى ، وفى خصرك الضيق ، وصدرك البارز  
 المتحدى ، وفى شفتيك حيث يتمنى المرء أن يقضى عمره فى مسهما  
 بشفتيه ، وأنفك الدقيق وعينييك العجيبتين ٠ ترى كيف استطعت  
 مقاومة سحره فى هذه اللحظة ، وكيف أمكننى أن أكتفى وقتذاك  
 بالنظر والتطلع ؟



ثم تعودت أن أراك بعد ذلك ، أو تعدت أن أراك ، ولا بد أنك بدأت ،  
 تحسين بي أنت الأخرى وتعرفيني ٠٠ كنا نتبادل النظرات ٠٠ وكنت  
 دائما أحاول أن أجلس بحيث أواجهك ، وبحيث يمكنني أن أراك  
 بسهولة دون أن ألفت الى الأنظار . وكنت أنت أيضا من جانبك حينما  
 تقبلين تنتقين مكانا يواجهني حتى لكأنى أنا الذى انتقيت لك المكان .  
 ومرت الأيام وأنا لا أفعل شيئا سوى التطلع والتمتع بالنظر ٠٠  
 وكنت كريمة معى أبعد حدود الكرم ٠٠ اذا اعتبرنا أن مطلبى لم يكن  
 له أن يتعدى سوى التمتع بالنظر ، وانى لأنكره وقد أقبلت فى يوم  
 من أيام الشتاء فانتقيت مقعدا يجاورنى وحولته حتى أصبح كلانا  
 يواجه صاحبه وجلست منى على قيد خطوات وكنت ترتدين جيب  
 رماديا وبلوزة التريكو البيضاء ٠٠ وكان صدرك يريد أن يقفز منها  
 ٠٠ ثم وضعت ساقا على ساق ٠٠ ولم أستطع أن أمنع بصرى من  
 التسلسل الى ساقيك ، ثم الى حرف الجورب الذى نقشت عليه الزهور  
 الدقيقة ، ثم ارتفع البصر الى ما فوق الجورب فأبصرت جانبا من  
 ساقك فى صفائها ونقاها ، وأبصرت بالحسنة ، فأحسست بنشوة  
 عجيبة تفوق تلك النشوة التى كنت أحس بها عندما أبصرك عارية الا  
 من لباس البحر .

ترى أكانت هذه الجلسة منك مصادفة أم كنت تقصدين بها أن  
 تبعثى الجنون الى رأسى ؟ سامحك الله .

ماذا تريدن منى أن أقول أكثر من ذلك ، عام بأكمله قد مر بى ،  
 وأنا فى تطلع وحرمان وانتظار ما وراء سوى اليأس ٠٠ ماذا أريد  
 منك وأنا رجل متزوج ؟! ان أقصى نجاح لى معك يعتبر أقصى هبوط  
 وأكبر زلل ٠٠ ولكنى مع ذلك ٠٠ أريدك ٠٠ ولا أستطيع أن أدفع  
 لهفتى عليك ؟

هذا مثل للتطلع والحرمان ٠٠ لا تتهمينى بالجنون ٠٠ ولا ترمينى

بالسحف أو بالسقامة والوقاحة ٠٠ أنت البادئة بالسؤال ٠٠ وانت  
التي طلبت مثلا ٠٠ وما فعلت سوى الاجابة ، وسوى أن ضربت  
مثلا ٠٠ فاياك أن تغضى وانسى كل ما قلته ٠

ولكنها لم تغضب ٠٠ ولم ترمنى بالجنون ٠٠ لا ٠٠ ولا  
بالسحف ، ولا السفه والوقاحة ، بل مدت يدها بهدوء فأمسكت بيدي  
وضغطتها برفق ٠٠ ولم تنبس بكلمة ولكن بعثت من عينيها نظرة  
تركتني ثملا ٠

ونهضت فنهضت وسرنا الى حيث العربية فجلست بجوارى  
وانطلقنا الى طريق فى أول الصحراء وانتحينا ناحية خالية ٠

دع عنك لومى ٠٠ فقد كنت فى غير وعى ٠٠ لقد كنت مخلوقا  
آخر ٠٠ انى قطعا لم أكن أنا ٠ لقد أصابنى من النشوة أكثر مما  
أحتمل ٠٠ تماما كما تفعل الخمر بشخص لم يتعود الشراب ، لتصور  
أنها قد أضحت بين يدي وأضحى جسدها يلامس جسدى ٠٠ هى التى  
قد مضى على عام وأنا لا أتمنى شيئا سوى قريبا والنظر اليها ٠٠  
لقد استلقت أمامى وقد انسأب شعرها وتهدل ٠٠ ثم أحسست  
بشفثتها تحت شفتى وعبير أنفاسها يختلط بأنفاسى ٠٠ اننى أستطيع  
أن أمسك بحروف الجروب الذى طالما تفت الى لسه ، وأستطيع أن  
أحسس بيدي الحسنة التى طالما أثارتنى ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ لقد كانت  
المقاومة ضربا من العبث ٠٠ وأقسم أن أى مخلوق سوى ما كان  
يتردد أن يفعل ما فعلت ٠

وأفقتنا أخيرا ٠٠ وأوصلتها بالقرب من دارها ٠٠ ثم عدت الى  
الصيدلية ٠

الصيدلية ! أية صيدلية تلك التى ينتظرنى صاحبها حتى هذا  
الوقت ! لقد طلب الرجل منى العودة بعد نصف ساعة ولكنى عدت

اليه بعد ساعة ونصف لا شك انه قد مل الانتظار فأغلق محله على  
التذكرة وعلى الدواء .

وأحسست بضيق شديد . . ولكنى قلت اننا نستطيع الانتظار حتى  
الصباح . . ثم عدت الى الدار . . فوجدت الأم قد احتضنت الطفل  
وراحا فى سعة من النوم .

وتمددت على فراشى . . ولم تغفل عيناى الا بعد فترة طويلة ،  
ولست أدري كم من الزمن غفلت عندما استيقظت على صوت بكاء ،  
وأبصرت الأم قد احتضنت الطفل بلهفة وقد ارتسم الألم والخوف على  
وجهها ، ورأيت ولدى قد راح فى غيبوبة . . وسمعتها تسألنى فى  
صوت يقطعه البكاء : « أين الدواء ؟ » .

ولم أستطع سوى الكذب فقلت : ان الرجل لم يستطع تركيبه  
الليلة ، وطلب الى ان أحضر لأخذه فى الصباح . . وامسكت بالطفل  
والألم يقطع نياط قلبى وأحسست بأنفاسه تضعف ، وأنا لا أستطيع  
أن أفعل شيئا .

وعدوت الى العربة لأحضر الطبيب . أو لأسأله أن يكتب تذكرة  
أخرى ، ولكن عندما عدت وإياه الى الدار صدمنى صراخ من داخل  
الدار . . ثم علمت أن الأمر قد قضى ، وأن الطفل قد ذهب فى لحظة  
عين .

لقد مات ابنى ! . . ولست من السخف بحال أحاول فيها أن أوهم  
نفسى أنتى قاتل ابنه . . ولكنى لا أملك فى بعض الأحيان أن أسألك  
نفسى : لو أحضرت الدواء فى تلك الليلة أما كان يحتمل أن أنقذ  
حياته ؟ ثم أحاول أن أجيب نفسى : ان العمر بيد الله ، وأنه ما من بشر  
يستطيع أن يوقف فعل القدر . . ولكنى أسمع صوتا خفيا يهمس فى  
نفسى قائلا : من يدري ؟ ربما كنت استطعت انقاذه بالدواء . .  
وأحس برجفة فى بدنى ورعدة فى قلبى !!

لقد فك من يدى أحد القيدىن ٠٠ فأحسست لفكه الما شديدا وبكيته  
بدمع القلب ٠٠ لقد كان وجوده يتعبنى ولكن نهابه أضناتى ٠٠ ترى  
أى شئ يرضى الانسان فى هذه الحياة ! ٠  
وصمت صاحبى ٠٠ فأجبته هامسا بما ينطق به لسان حاله :  
لا شئ ٠٠ قتل الانسان ما أكفره !!

## رجل مهرج

لم يكن أكثر من ممثل هزلى ٠٠ أى مضحك مهرج ، يكتسب رزقه من استدرار الضحكات والتواثب أمام الناس كأنه فرقع لوز !!

ترى أى شيطان من شياطين الهوى دفع بالفتاة الى أن تتردى فى حبه ؟ أى ربح عاصفة هبت فألقت بالزهرة الناضرة الى الثرى وهوت بها الى الحضيض ؟

لو التمسنا العذر للفتاة ، وقلنا ان الحب جنون ٠٠ وأن العاشق مجنون لا سلطان له على نفسه ولا سيطرة له على عقله ، وان لوثة الحب التى أصابت الفتاة فى سننها الطائشة قد أعمت بصيرتها ، فلم تر حرجا فى أن تقدم على الزواج من المهرج .

أجل ٠٠ لو التمسنا العذر للفتاة الصغيرة بأنها محبة عاشقة ٠٠ ولا حرج على الأعمى والمجنون والعاشق .

وهل تكون هى خيرا من صاحب الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ٠٠ الذى ضحى بعرشه فى سبيل امرأة ؟ !

كل ذلك يمكن أن يكون عذرا للفتاة !! ٠٠ ولكن أى عذر يمكن أن نلتمسه لأنها هذه السيدة العاقلة الرشيدة الابية المحافظة ، فى أن

توافق على الزواج يمثل هذه السهولة .. فلا تحاول أن تنتهر فتاتها  
أو تسدى إليها النصح والارشاد .

لم لم تحاول مرة واحدة أن تثنيها عن هذا الزواج .. وهى  
الواسعة الثراء ، الطيبة الأصل ، التى لا تنتظر لابنتها الا كل ذى  
جاه وسلطان ؟ ! .

ماذا حدا بالمرأة الحكيمة أن تأخذ الأمر كأنه قضية مسلم بها ،  
فلا تحاول أن تبدى مجرد الضيق والاستياء ، حتى لكأنى بها راضية  
كل الرضا ، وانها لم تكن تتوقع لابنتها زوجا سوى ممثل هزلى ؟

كل ذلك كان يطوف برأسى وأنا حائر لا أدرى له سببا ولا علة  
حتى خلوت بالأم ذات مرة .. امرأة تبلغ من العمر نيفا وأربعين  
عليها مسحة من جمال وقور ، زاده وقارا ذلك الشيب الذى لم تحاول  
أن تخفيه بالأصباغ .. فى حديثها طلاوة ، وفى لهجتها رقة .

ولم يطل بى الأمر حتى أفرغت ما فى رأسى من أسئلة حائرة ،  
ونظرت الى المرأة برهة ثم ابتسمت قائلة :

— حتى أنت ؟ . أنت الذى تضع الحب من كتابتك فى أولى مراتب  
الحياة ، تدهش أن أكون راضية عن ذلك الزواج ؟

وترددت برهة ثم أجبتها مستضحكا :

— فى الكتابة فقط !! فنحن نحاول بالكتابة أن نهيهء لأنفسنا  
ناحية من الارضاء ، لا تهيهء لنا الحياة ، ولكن عندما تصطدم هذه  
الأشياء المثالية التى نكتبها بحقائق الحياة .. نجدها قد انهارت ..  
فزواج ابنتك من هذا الممثل يمكن أن يكون موضوعا لقصة ناجحة ،  
ولكن لو تتبعناه فى الحياة لرأينا شيئا فاشلا ، فلقد كان خيرا  
لابنتك أن تضرب بحبها عرض الحائط ، وأن تنتظر حتى تتزوج رجلا  
محترما .

وأطرقت المرأة ، ورأيتها تكرر قولى فى شيء من شروذ الذهن :

– تضرب بحبها عرض الحائط ، وتنتظر حتى تتزوج رجلا  
محترما !! تماما كما فعلت ٠٠ لا ٠٠ لا يا سيدى ٠٠ لا يلدغ المؤمن  
من جحر مرتين ٠  
وصمتت برهة ثم بدأت تروى كيف لدغ « المؤمن » من الجحر  
أول مرة :

– كان ذلك منذ عشرين عاما وقد جلس قبالتى تماما كما تجلس  
الآن ٠ وأخذ يقول لى « ان لكل انسان حلمه الذى يرغب فى تحقيقه ،  
ولكن ليس لكل انسان العزم الذى يستطيع به ان يحقق هذا الحلم ،  
وان أسعد الناس رجل وهب له الله العزم فاستطاع ان يجعل من  
أحلامه حقائق ، وأنى أحلم بأن أكون ممثلا ناجحا ٠ ولا بد أن  
أكونه » ٠

وأجبتة بشيء من الحنق ٠  
– ليس هناك على وجه الأرض من يستطيع أن يقنعنى بأن أكون  
زوجة مهرج ٠

– لا تقولى مهرجا ، بل قولى فيلسوفا ، ان الدنيا ملأى  
بالأحزان ، فهل هناك أقدر من امرئ استطاع أن يبدد من الدنيا  
بعض أحزانها ، وأن يهيب للناس من الضحك ما يغسل به هم  
قلوبهم ؟ هل تسمين مهرجا ذلك الذى يستطيع السيطرة على نفوسنا  
فينتشلها من حلقة الضيق والتبرم ، ليغمرها فى أضواء الفرح  
والمرح ؟

– سمه ما شئت !! ٠ ولكن عليك أن تختار بينى وبين التمثيل ٠٠  
أجل ٠٠ انى لا أريد قط أن يسألونى أين زوجك ؟ فأقول قد ذهب  
ليضحك الناس !!

ولقد اختار التمثيل لا لأن حبه لى لم يكن عميقا جارفا ، بل لأن  
حبه للتمثيل كان قد ملك عليه حواسه وسيطر على جوارحه ٠

اختار أن يكون ممثلاً هزلياً . وهو الذى كان يستطيع أن يتعلمه فيصبح موظفا محترما كبقية خلق الله ، ولكنه ركب رأسه واندفع فى هوته ، وركبت أنا أيضا رأسى ، وعزمت على ألا أنزلق معه ، وأن أقطع كل علاقة لى به ، وأن أكبت حبنى بين جوانحي حتى يذبل ويموت ، فذلك خير لى من أن أكون زوجة مهرج .

لقد كنت أحب فيه فكاهته ومرجه وحلو حديثه . . أحب قدرته على أن ينتقل بى الى جو لا يمكن أن تحيا فيه جراثيم الأسى والحزن . . وكنت أحب منه صفاء قلبه ونقاء ذهنه ، ولكنى كنت أكره أن تكون تلك هى مهنته فى الحياة . . وأن يكون ذلك هو مورد رزقه ورزقى . . كنت لا أتصور قط أن يقف أمام الجماهير ليكون منها موضع الضحك والسخرية .

وهكذا انتزعته منى جنونه بالتمثيل . . وانتزعنى منه انفتى وكبريائى . . فافترقنا وبنفسينا لوعة استطاع كل منا أن يخفيها فى صدره . . وسار فى طريقه . . وسرت فى طريقى .

ولقد أنكره أهله كما أنكرته . . واندفع فى طريقه الشائك المظلم ، ليس له نبراس سوى قوة عزيمته واقتناعه بأنه فيلسوف وليس مهرجا . . وأنه يقوم بخير دور يمكن أن يقوم به انسان . وهو إزالة الهموم وتبديد الأحزان .

وسرت أنا فى طريقى ، قانعة راضية فى الظاهر . . فلقد استطعت أن أخفى من نفسى كل مظاهر الأسى واللوعة والخيبة فى الحب . اللهم الا فى لحظات متباعدة كنت أخلو فيها الى نفسى فتنتكا الذكرى جرحى وتدمى قلبى .

وتزوجت زوجا لا أرى فتاة يمكنها أن تطمع فى خير منه ان كانت خالية القلب . . فلقد كان حسن الخلق ، مقبول المظهر ، واسع الثراء ،



وإظن هذه خير من صفات يود العقل أن تتوافر في الزواج ٠٠ العقل  
٠٠ لا القلب ٠٠ لأننى كنت دائما أحاول أن أسحق قلبى ٠٠ وأجعل  
عقلى مسيطرا على نفسى ٠

واستمر العقل مسيطرا والقلب مكبوتا وأنا يخيل الى اننى قد  
انتصرت نهائيا ٠٠ وأن حبي القديم قد عفا وعفت آثاره ٠٠ حتى  
كان ذات يرم دعانى زوجى الى الذهاب الى أحد المسارح يقول ان  
به مسرحية كوميدية جديدة وان بطلها هو ممثل كوميدى حديث  
الظهور ، ولكن من شاهده يقولون عنه انه عبقرى ارتفع بالتمثيل  
الكوميدى من مرتبة التهريج الى مرتبة الفلسفة ، وانه فيلسوف  
وليس بمهرج ٠

وقبل أن يقول اسمه كنت أعلم سلفا أنه سينطق باسم صاحبه ٠٠  
فما كنت أظن هناك عبقرىا سواه ٠٠ ولم يخطئ حدسى ٠٠ فقد كان  
هو ٠٠ وأحسست برجفة عندما سمعت اسمه واعترتنى اذ ذاك  
هزة ٠

ولو كانت لى الخيرة فى الذهاب لما ذهبت ، فلقد أقنعنى عقلى  
أنه من الخير ألا أذهب ٠٠ فهو يخشى أن يستيقظ القلب من طول  
سباته ٠٠ ويفيق من طول هجعتة ، فيثور ويتمرد ، فيفلت منه الزمام  
وينطلق العنان ٠

وذهبت الى المسرح !!

هل تستطيع يا سيدى أن تفهم مشاعرى فى تلك اللحظات قبيل  
رفع الستار ؟ هل تستطيع أن تسمع دقات قلبى ؟ هل تستطيع أن  
تتبع ذهنى وقد شرد منى بين ربوع الماضى يرتشف من كؤوس ذكرياته  
ويستعيد لحظاته الإهنيئة الممتعة ؟ هل تستطيع أن تتبع بصرى وقد  
ثبت على الستار وبوده لو استطاع أن ينقذ الى ما وراءه ليتعجل  
رؤية حبيب القلب ومنية الروح ؟

تلك اللحظات التى أضحت العقل فيها فى سبات عميق ..  
أما القلب فقد كان فى يقظة تامة .

ودقت المطرقة ثلاثة دقات . وأخذ الستار يرتفع رويدا رويدا ،  
وبدأت الرواية . . وبعد فترة قصيرة ظهر هو على المسرح ، فاستقبلته  
الجماهير بعاصفة من التصفيق .

ومضت فترة من الوقت وأنا لا أفهم ماذا يقول ، فقد كنت فى  
اضطراب شديد . . وتمنيت لو استطعت أن أنزل الى المسرح فأرتدى  
بين ذراعيه ، ثم بدأت أعود الى نفسى وأنصت اليه ، ورأيت أنه هو ،  
بخفته ومرحه . . ولطفه وظرفه ، ليس هناك أثر للتكلف فى كل  
ما يقول ، فكانه لا يمثل بل كأنه يحيا فى دوره حياة طبيعية ، بفلسفته  
الساخرة الهازئة الزاخرة بالفكاهة .

ووقع بصره على فجأة ، والتقت عيوننا وعراه اضطراب لفترة  
قصيرة ، ولكنه استعاد نفسه . وازدادت أجادته وبدأ لى أن وجودى  
قد أسعده وملاه ثقة ، وغمرتني نشوة ، وخيل الى كأن المكان قد  
خلا الا منى ومنه .

وانتهت الرواية أخيرا وأحسست بانتهاؤها أن مقاومتي قد انهارت  
تماما ، فقد عاودنى قديم حبي كأعنف ما يكون . . وأحسست بالندم  
على انسياقى وراء سخافات العقل ، وعلى تمسكى بتقاهات الأنفة  
والكبرياء ، وعلى تسرعى بالزواج . ولم أعد أتمنى شيئا الا أن  
أطلق من زوجي الحاضر الذى يجلس بجوارى ، والذى لم أحس له  
وجودا طوال الساعات الثلاث الماضية ، لأرتدى تحت قدمي صاحبي  
حتى نهاية العمر ، وليقل عنى الناس زوجة مهرج وليقولوا عنى حتى  
زوجة لص أو شحاذ . . فماذا يهمنى مما يقول الناس ، ما دمت أنا  
ناعمة بجواره ؟

ورغم كل ما طاف برأسي من أفكار ورغبات ، فانى لم أملك الا أن

أعود ٠٠ أعود مع زوجى الى الدار فى هدوء وسكون ، دون أن يلحظ  
أثرا لتلك الثورة التى تعتمل فى نفسى ٠٠ اللهم الا تلك الوجوه الذى  
اعترانى والذى اعتذرت عنه بصداغ الم بى  
وكما نكأت رؤيته جرحى فقد نكأت رؤيتى جرحه ، وكانت النتيجة  
الطبيعية لذلك أن يحاول كلانا أن يلتقى بالآخر ، ولم يكن ذلك بالأمر  
العسير ، وتم اللقاء ٠

التقينا ٠٠ وكأننا نصفان لانسان واحد ٠٠ أبعد بينهما الدمر  
حيننا ٠٠ فكان كل منهما نصف ميت ولما أعيد أحدهما الى الآخر  
جاشت فيهما الحياة ، وردت الروح ٠

قلت انى ناسمة ، وانى على استعداد لا لكى اصبح زوجة مهرج  
فقط ، بل على استعداد لأن أسرح « نشحت » سويا ، وقال انه نادم ،  
رغم ما أحرزه من مجد وما بلغه من نجاح ، لأنه ما شعر قط بطعم  
المجد ولذة الانتصار ٠٠ فما قيمة انتصار المرء اذا لم يستطع أن  
يهدى ثمرة انتصاره الى من يحب ؟

وتناجينا ، وتباكينا ، وافترقنا ، والتقينا مرة وثانية وثالثة  
ورابعة ، وفى كل مرة يلج بنا الشوق وتستعر اللهفة  
وحاولنا أن نتدبر أمرنا ، ولكن المشكلة كانت عسيرة فلقد كنت  
زوجة ٠٠ وكنت حاملا ٠٠ وأكثر من هذا كان هو الآخر زوجا ، فلقد  
وجد من سواى من رضيت بأن تكون زوجة مهرج ، وكانت هى  
الأخرى حاملا

أجل يا سيدى ٠٠ لم تكن المسألة من السهولة بحيث يقبل أحدها  
على الآخر لمجرد رغبته فى ذلك ، فقد كان وراء كل منا عبء ثقل ٠٠  
ولم يكن الأمر يقتصر على زوجى وزوجته ، بل على ولدينا المتطربين  
كيف اطلب من زوجى الفراق ، وأنا أحمل ابنه فى أحشائى ،  
وكيف يترك هو زوجته ومعها حشاشة كبده ؟

لننتظر فما كنا نملك سوى الانتظار ، لننتظر حتى اضع أنا ،  
وتضع زوجته ، ولنتدبر بعد ذلك أمرنا •

ووضعت ابنتى ، ومرت بى الأيام وأنا مشغولة بها ، برضاعتها  
والعناية بها والسهر عليها ، والتقيت به بعد فراق شهور وعلمت منه  
أن امرأته وضعت طفلا •• وأخذ يحدثنى عنه طويلا •• فلقد كان  
يحببه كما كنت أحب ابنتى •

ولا شك أن حبنا لطفلينا قد خفف من حدة حبنا بعض الشيء ،  
ولكن لم يكن لهذا الحب أن يذهب •• أبدا •• فلقد كان كما هو ،  
ولكن اللهفة قد خفت بعض الشيء •• وصرنا أكثر تعقلا وروية ،  
ولم يعد بنا ذلك الطيش الذى كان يسهل على كل منا أن يترك زوجته ،  
وأصبحنا أكثر قدرة على الصبر والتحمل •

وتشاء الأقدار أن يتوفى الله زوجى ، ورغم حزنى عليه فأننى  
شعرت بأحاساس خفى يدفعنى الى شكر القدر على فعلته فقد خيل  
الى أن القدر ينوى أن يحبك قصته وأن يختمها خير خاتمة ، وأحسست  
بهاجس ينبئنى أنه لم يبق على الخاتمة غير وفاة زوجته ، وما ذلك  
على القدر ببعيد فيخلو لنا الجو بعد ذلك وتصفو الحياة ، ونستمتع  
بأطفالنا ، وبالثروة التى تركها لنا زوجى ، وبالمجد الذى أصابه هو •

أجل يا سيدى ، هذا ما كان يجول بخاطرى •• ولست أنكر أنها  
كانت هواجس لا تخلو من السوء ، ولكنها كانت تصور كل أمنياتى •

ولكن القدر الأحق سخر منى ، فلم يجد حبك القصة ، وختمها  
شر خاتمة •• خاتمة لم تكن تخطر لى قط على بال •• إذ لم تكن  
تمضى على وفاة زوجى بضعة أسابيع حتى حمل الى الناعون ••  
لا نيا وفاة زوجتى •• بل خبر وفاته هو •

أى صاعقة انقضت على فتركتنى حطاما ؟ • لقد كنت اتوقع كل

شيء الا موته ٠٠ لقد أحسست بالحياة تظلم من حولي وشعلنى شعور  
بالوحدة والوحشة ٠

ومرت بى الأيام بعد ذلك كثيية معة ، وشبت طفلى فملات على  
فراغ حياتى ولم أعد أبصر فى الحياة سواها ٠٠ فهى عزائى وهى  
سلوتى !!

هل تستكثر على بعد ذلك أن أتركها تتزوج بمن أحببت ؟

ولم أحب ، وران الصمت بيننا لحظة ، ثم أردفت قائلة :

— خاصة ٠٠ اذا كان من أحببت هو ابن من أحببت طيلة حياتى ٠٠

ابن الرجل الذى أفسدت حياتى وحياته لأنى رفضت أن أكون زوجة  
مهرج !! أتريد منى بعد ذلك أن أفسد حياة ابنتى وابنه ؟ أتريد أن  
الدغ من جحر مرتين !! لا يا سيدى !! لا ٠٠ لقد علمتها عندما يسألها  
الزواج أن تقول له نعم ، لأنها لا ترى فيه الا فيلسوفا يبدد عن الدنيا  
أحزانها ، ويهيب للناس من الضحك ما يفسل به هم قلوبهم ٠



## رجل مضى

حدثني صاحب القصة ، قال :

كنت أراها في بقعة نائية على الشاطئ ، وحيدة لا تفعل شيئاً سوى الحملقة في البحر صامتة ساكنة لا تكاد تكلم أحداً أو يكلمها أحد ، فكانها هاربة من ضجيج الناس وضوضائهم ، لاتذة بالوحدة الموحشة وبالسكون البائد .

ولم أكن أستغرب ميل امرئ الى العزلة وحنينه الى الوحدة ، فقد كنت أنا نفسي كثيراً ما أفكر في أن أفر من الناس لاجئاً الى بقعة نائية خالية ، في روضة أو صحراء أو على شاطئ بحر ، ولكن الذي استغريته من الفتاة وهي زهرة متفتحة أن تهفو الى الوحدة وتفر من اللهو .. كأنها عجوز أجهدتها الحياة .

ولست أدري هل كان حب الاستطلاع هو الذي دفعني الى الاهتمام بها وهل كانت رغبتي في الاقتراب منها والحديث معها ، هي رغبة أي انسان في اكتشاف امر غريب لم يتعوده ، أم أن الفتاة نفسها كان بها نوع من السحر والفتنة دفعني الى أن أجعل منها ما يشغل رأسي ويسيطر على تفكيري .

على أية حال ، لقد وجدته على مقربة منها في

صمت وسكون ، أرقبها خفية متظاهرا بقراءة كتاب فى يدي ، وكنت  
أشهدا تعيث فى الرمال بعضا فى يدها ، ثم تسبح ببصرها فى  
الأفق البعيد وفى جوف الماء •

ولم أكن أقضى بجوارها سوى فترات قصيرة ، فقد خشيت أن  
يثقل عليها وجودي ، وأن أضيع عليها متعتها فى الوحدة •  
ومرت الأيام ، فإذا بحنينى الى الفتاة يشتد •• وبدأت أحس أنها  
قد ملكت زمام نفسى ، وشاورت قلبى فى أمرها فأشار على أن أتقدم  
إليها وأحدثها ، ويت ليلى أحضر ما سأقوله لها ، والرد على  
ما سوف تقوله لى ، واستيقظت فى الصباح وكأني مقبل على أمر  
جلال ، وأخذت أستعيد ما لقنته نفسى طوال الليل •

وتقدمت الى نهاية الشاطئ فلمحتها جالسة فى مكانها ••  
وأحسست قلبى يخفق بشدة وأقتربت منها فى خشية وتردد ، وشعرت  
بوقع أقدامى 'فالتفتت الى ' وحيثها فأجابت تحيتى بصوت عذب  
ورقيق •• ثم استأذنتها فى أن تسمح لى بالجلوس الى جوارها •  
فلم تمنع •

وبخثت فى ذهنى عما قد حفظته من أقوال فإذا بها قد تبددت ،  
وأخذت أنظر إليها من قريب ••: فغمزتنى نشوة عجيبة •••  
كانت مخلوقة رقيقة مرهفة •• وكان وجهها دقيق النقايع ،  
صافى البشرة ، وقد غصت شعرها الذهبى فى مؤخرة رأسها وكانت  
ترتدى بلوزة بيضاء ديكولتيه ، أبرزت غنقها العاجى ، وجونيللا  
قصيرة من الصوف الأحمر وحذاء خفيفا أبيض •  
وبدأتها الحديث بعد فترة صمت •:

— إخشى أن أكون قد ضايقتك •• انى لم استطع أن أقاوم رغبتى  
فى الحديث معك • كنت أكتفى من قبل بالجلوس على مقربة منك ،  
ولكن الانسان شبيه الطمع قاعزيرنى •



وضحكت الفتاة قائلة :

– لا أظن هذا طمعا فأى مخلوقين تجمعهما بقعة خالية كهذه ،  
لا بد أن ينتهى بهما الأمر الى التعارف •  
– أما من ناحيتى أنا فقد تعرفت بك من مدة طويلة ، ويخيل الى أن  
هناك تآلفا بين روحينا يجذب كلا منا الى الآخر ، أو هذا على الأقل  
هو ما أحس به •

واقتر ثغرها عن ابتسامة عذبة ثم رأيتها تضع يدها اليمنى على  
ركبتها ، وبدأت الى أن هذه الحركة منها لم تكن عفوا ، فقد لمحت فى  
أصبعها خاتم خطوبة ، ولم أشك اذ ذاك فى أنها تقصد أن تلوح لى به •  
ولست أنكر أن حركتها هذه قد أصابتنى بخيبة أمل شديدة ،  
ولكنى حاولت جهدى الا أجعل مظهرها يبدو على وجهى ، وتشاغل  
بالعبث فى الرمال ، وحاولت أن أجسد موضوعا أغير به مجرى  
الحديث ، ولاحث فى الأفق سفينة صيد شرعية تظهر وتختفى بين  
الأمواج •

وأشرت الى السفينة وقلت فى شيء من الدهش :  
– ماذا حدا بالسفينة الى أن تندفع فى عرض البحر هكذا  
الاندفاع ؟ ! انى لا أكاد أبصرها •  
وأجابت ببساطة :

– لا شك أن الصيد هناك وافر ، لقد تعودت دائما أن أبصرها  
تبتعد حتى تختفى عن البصر •  
– انظرى ، ها هى ذى قد ظهرت ثانية •  
ونظرت الى الأفق ، ثم هزت رأسها قائلة :  
– أنا لا أبصرها •

ومددت يدي ، وأشرت بأصبعى فى اتجاه السفينة التى بدت فى  
الأفق كأنها نقطة بيضاء ، ثم قلت لها :

- ها هي ذى - ألا ترينها ؟  
وهزت رأسها ببطء مرة أخرى قائلة :  
— لا • لا أراها •  
— لقد اختفت ثانية ، دعينا منها •  
ورآن الصمت يبيننا برهة ، ثم قالت الفتاة :  
— هل تعودت أن تحضر الى هنا كثيرا ؟ ! •  
— منذ أبصرتك •  
فضحكت وسالنتنى :  
— انن فلست تحب المكان نفسه ، أنا لا أوافقك على ذلك ، فان لى  
ولما به منذ الصغر •  
— كاتى بك قد جاوزت الصغر •• انك لا تزالين طفلة •  
— ألا ترى منى أكثر من هذا ؟  
— بل أرى •  
— ماذا ! •  
— وأجبتها من أعماق قلبى :  
— أرى منك معجزة خارقة !!  
وتدرج بنا الحديث دون أن ندري ، وتمر الوقت كأنه البرق ،  
ونظرت الى الساعة فى يدي فإذا بعقريها قد قطع من الزمن ساعتين  
فى ثوان معدودات ، وتنكرت أتى على موعد هام ووجدت نفسى  
مضطرا الى مقارقتها •  
— وأحسست أن فراقها أمر عسير على ، وخيل الى انى قد ارتبطت  
معها برباط وثيق ، ولكنى نهضت فى النهاية وشدت على يدها ،  
ثم سالتها :  
— هل أراك فى الغد ؟  
وهزت رأسها ، وقالت :

ـ يحتمل ٠٠٠

وغادرتها وسرت فى طريقى بخطى ثابتة متثاقلة ويبدى أن أعود اليها ، وقيل أن أنحرف فى الطريق التقت برأى لآلى عليها نظرة أخيرة ، فرايتها قد أدارت رأسها وأخذت ترقبى ٠٠ ووقفت فى مكانى ورفعت يدى ألوح لها بتحية أخيرة ٠ وأحسست بخيبة أمل ، فانها لم تجب تحيتى ٠

وعندما أخلدت الى نفسى فى المساء وجلست فى شرفة الدار أرقب النجوم ، وكنت أستعيد كل ما حدث ، وأحلل كل ما قالته وكل حركة أتت بها ، ولم تفارق صورتها مخيلتى بشعرها الذهبى ووجهها الرقيق ٠

لقد أقنعت نفسى بأنها أقبلت على ، وأحاطتني بجو من الصداقة والثقة ، وأن حديثى معها قد سرها وأنى قد وقعت من نفسها موقعا حسنا ، فقد استطعت أن أغمرها فى جو من المرح والمهرور ، وأحسست من ذلك بنشوة ومرتعة ٠

ثم تذكرت بعد ذلك خاتم الخطوبة الذى كان فى يدها ومحاولتها التلويح لى به ، فقلت لنفسى : لعلها لم تقصد شيئا ٠٠ أو لعله لم يكن خاتم خطبتها ٠٠ ولكن عندما استعادت نفسى صورتها ، عدت فأقنعتها أن الفتاة قصدت بلا شك اشعارى بأنها مخطوبة ٠

وشرد بى الذهن برهة ٠٠ ثم استقر فجأة على أمر جعلنى أحس برجفة تسرى فى بدنى أمر استطعت أن أستجمعه من عدة صور متتالية مرت بالذهن ٠

صورة العصا الطويلة فى يدها تعبت بها فى الرمال ، وصورتها أخيرا وهى تتبعنى بصرها فاذا ما لوحث لها بيدي لم تجب على تحيتى ٠

وأحسست بالعرق البارد يتصبب على جسدى

كيف غاب عني أن الفتاة لا تبصر ؟!

انها لا شك ضريرة !

وشعرت برغبة فى البكاء من أجلها ، وأحسست أن حبي قد

تضاعف • وعصف بى الحنين إليها • ووددت لو استطعت أن أقضى

العمر راكعا عند قدميها •

وفى اليوم التالى وجدتها فى مكانها ، وكأنما كانت تنتظر قدمي

فقد التفتت الى عندما أحست وقع قدمي وحيتنى فى لهفة ظاهرة ،

وجلست بجوارها وأمسكت يدها فضممتها بين يدي •

وصمت كلانا برهة من الوقت ، وأنا أرمقها وهى تسبح ببصرها

فى الأفق البعيد • وخيمت على وجهها سحابة من قلق • وبدأ لى

أنها قد أحست أننى أعرف !

وقلت لها هامسا وكأن فى حلقي غصة :

— انى أسف ، عندما أشرت الى السفينة بالأمس لم أكن أعرف • •

انى لم أعرف حتى خلوت الى نفسى فى جوف الليل واستعدت كل

ما فعلته •

وأجابتنى فى صوت خفيض وهى ما زالت شاردة :

— لقد أخطأت ، وكان يجب على أن أنبهك ، ولكن كان هناك شيء

فى صوتك لم أسمعته منذ زمن بعيد ولم أرد أن أخبرك فأحرم نفسى

متعة • هل فهمت ؟

— وهل لا يزال هذا الشيء فى صوتي أم تريئه قد ضاع ؟

فأجابت فى صوت ملؤه الحزن :

— لا • لا • انه لا يزال كما هو •

وقلت لها :

- أنت اليوم والأمس عندي سواء ، لم يختلف الأمر قيد أنملة ٠٠  
هل تصدقيننى ؟
- لا ٠٠ هذا أمر يسهل عليك قوله الآن ٠٠ أما بعد ذلك فلا  
ومددت يدي فلمست حاتم الخطوبة فى يدها وسألته :
- ما حديث هذا ؟
- ليس هناك كثير يقال ، لقد خطبت ، ثم أصبت بما أصبت به ،  
وسأرحل بعد أيام مع والدتى ٠٠ لاجراء عملية قد تنجح وقد لا تنجح ،  
فإذا نجحت فستتزوج ٠
- وإذا لم تنجح ، هل ستركك ؟
- لا أظن أن هناك من يرغب على زواج فتاة ضريرة ؟
- وأمسكت بيديها ودفنت فيهما وجهى ، ولم أستطع أن أمنع سيل  
الدمع الذى انههر من عيني ، وقلت لها فى صوت مكبوت :
- اذا لم تنجح فستتزوجيننى ، وسأجبرك على ذلك ٠
- وساد الصمت بيننا برهة ورأيتها قد استغرقت فى التفكير ثم  
همست الى قائلة :
- دعنا من هذه الأجاديث الحمقاء ٠
- لست أحمق ٠ هلا تستطيعين أن تحسى ايمانى بأنى أريدك كما  
أنت ٠٠ ليس هناك أقل فارق بينك مبصرة ٠٠ وضريرة ، اللهم الا  
اذا كنت أنت لا تريديننى ، ولا تؤمنين بى ، أنا لست قبيحا ، وأؤكد  
لك ان أمامى مستقبلا زاهرا ، وأستطيع أن أهيب لك عيشا رغدا ٠
- وأحسست أصابعها تتحسس وجهى وشعرت من ذلك برعدة سرت  
فى جسدى ، ثم سمعتها تتمتم قائلة :
- قناما كما أتخيلك - - نفس الأنف ، ونفس الشفتين ، لا تختلف  
فى شيء عما رسمت لك فى ذهنى ٠
- وصممت برهة ندت عنها تنهيدة حارة وأرذقت قائلة :

– أية متعة وهبتها لى بالأمس .. عندما جلست الى وعلمت أنك  
لا تعرف؟! لقد منحنتى شيئا ظننت اننى فقدته الى الأبد ولا أظننى  
استطيع الحصول عليه ثانية .

– لا تقولى هذا . انك تخافين العطف وتخشين الشفقة ، وأؤكد  
لك انى لا أحس لك شفقة ولا عطفًا . ان ما أحسه هو الحب ، الحب  
العميق الفياض . اتفهمين ما هو الحب ؟ انى أحبك الى الحد الذى  
أتمنى فيه الا تنجح العملية . وأن تبقى كما أنت .. حتى تكونى لى  
وحدى ، فهل لا تزالين تظنين أن ما بى شفقة وعطفًا ؟ !

ولم تجب فقد عصفت بها نوبة من البكاء ورئدت لنفسى ما قلت ،  
فأحسست قسوته وشعرت بخجل شديد وأخذت أريت على يدها وقلت  
لها استغفراها :

– انى أسف .. انا لا أقصد ما قلت .. لقد دفعنى اليه فرط  
حبنى لك .

ورفعت الى عينيها المغرورقتين وهمست قائلة :  
– علام الأسف .. ما قال لى انسان خيرا مما قلت ، فانى أعرف  
لم قلته .

– ولكنها أثنائية منى ، وأنا لست أناثيا الى هذا الحد . ثقى انى  
سأدعو الله ليل نهار أن يعيد اليك بصرى ، فإذا لم يستجب دعائى ،  
فانك لى وسأرغمك على زواجى .

– لقد عدنا الى الحماقة مرة أخرى !  
ثم حاولت أن تغير مجرى الحديث بقولها :  
– ألا ترى سفينة الصيد تظهر وتختفى ؟ !  
ورفعت بصرى الى الأفق فرأيت السفينة تلوح فى اقاصم فقلت  
ضاحكا :

– أجل .. انى ابصرها أمامى كأنها نقطة بيضاء .

- خبرنى ماذا تبصر أيضا • يخيّل لى أن الشمس مشرقة ساطعة ،  
 فانى أشعر بحرارتها ، وأحس أن البحر هادئ ، فانى لا أكاد أسمع  
 صوت الموج ، وأشعر بخفة النسيم على وجهى • انى لا أزال أستطيع  
 التمييز بين الظلمة والضياء •• وفى ذاكرتى كثير من جمال المكان ،  
 وأبصر أشياء كثيرة بعين الوهم والخيال ، خبرنى عما ترى ؟  
 ولاحت فى ذهنى فكرة عجيبة •• وساءلت نفسى لم لا أحاول أن  
 أعوضها عن ضوء عينيها ؟ ولم لا أكون أنا عينيها ؟ وارتحت لهذا  
 الخاطر وأنعمت البصر فيما حولى ، وبدأت أتحدث :  
 - انى أبصر نفس ما تحسّين •• البحر الواسع المنبسط ،  
 يترجرج فيه الموج ، وتتهادى الموجة فيه وراء الموجة ، حتى تصل هنا  
 الى رمال الشاطئ فتتكسر وتنبسط •• وتطويها الرمال فتقنى كأن  
 لم تكن ، وتتبعها أخرى وغيرها ، وهو يقنف والرمال تطوى ، فلا هو  
 سنم القنف ولا هى ملت الطى ، وحولنا قد انبسطت الرمال لا أكاد  
 أبصر فيها سوى آثار أقدامنا معا •  
 - ماذا تبصر فى أقصى اليمين ؟  
 - بروز فى الشاطئ عند سراى المنتزه قد تكاثفت فيه الأشجار •  
 - هل ما زالت هناك المئذنة تعلو من بين الأشجار ؟  
 - أجل •• أجل •• ما زالت كما هى •  
 - ومجموعة النخيل المتناثرة ؟  
 - كما هى •  
 - والصخرة ؟  
 - ما زال الناس يعتلون صهوتها مرحين عابثين ، ومركب خفر  
 السواحل كما هو يقفز الصبية من فوقه الى الماء والحارس ما زال  
 نفخ فى صفارته لينهاهم عنه !! •  
 ثم رأيتهما تستغرق فى الصنمت ، وبدا أن ذهنها قد شرد فقلت لها

— فيم تفكرين ؟

وهزت رأسها ببطء وأجابت هامسة :

— كنت أتمنى لو التقينا قبل أن يحدث لى ما حدث .. لقد ملأتنى بالأمل وأعدت الى نفسى ما تبدد من الايمان .. واضأت لى فى حناياك بارقة تهدينى سواء السبيل ، فأشرقت الدنيا من حولى بعد ظلمة ، لقد كنت أحس انهيارا تاما فجعلتنى أتمالك وأتماسك .. اننى أستطيع الآن أن أقف على قدمى .. وأن أوصل السير فى الحياة .. لقد علمتنى أن الانسان قد يغنيه عن ضوء عينيه ضوء قلبه .

وافترقنا بعد ذلك ، ولأول مرة عرفت أن السهد قد يصيب الانسان من فرط سعادته كما يصيبه من فرط شقائه !

ورحلت بعد ذلك فلم أستطع لقيها ، ولم يكن أمامى سوى الصبر والانتظار .

ماذا كنت أنتظر ؟ .. وماذا كنت أخاف وأخشى ؟ اننى بشر .. بشر يحب .. لا بقلبه فقط .. بل بكل ذرة فى جسده .. انى أحس انها منى ، فهى فى رأسى ، وفى قلبى وفى جسدى .. لقد فارقتنى ، وما فارقتنى ، فانى أراها فى كل ما أبصر ، وأنصت اليها فى كل ما أسمع ، وأحس بها فى كل ما أفعل .. سامحنى الله .. هل أجسر فأقول اننى كنت أدعو الله أن يشفيها وفى قرارة نفسى كنت أتمنى ألا يفعل ؟ هل أجسر أن أقول اننى .. انا الذى كنت أتمنى لو أستطيع ان اهب لها ضوء عينى ، كنت أخشى أن يرد اليها بصرها فأفقدما !

وطال بى الانتظار وأنا لا أفعل شيئا سوى الجلوس فى المكان الذى كانت تجلس فيه ، كلما مضى الوقت زادت خشيتى .. حتى أقبلت ذات يوم فلمحتها فى مكانها .

وعرتنى ان ذلك هزة .. وانتفضت من قمة رأسى الى اخمص قدمى ، وتلاحقت أنفاسى ، واشتدت خفقات قلبى واخذت أقترب منها .



هل شقيت ؟ ! لقد دعوت الله طويلا أن يشفيها ... ليت الدعاء  
لا يستجاب .

وكانت مولية وجهها شطر البحر ولحت في يدها العصا تعبت  
بها في الرمال وكان فيها الجواب .

سامحني الله ، وشكرا لله ، الذي لم يستجب دعائي .

واحست بوقع قدمي ، فالتفتت الى ولحت في وجهها ابتسامتها  
الحلوة وجلست بجوارها وكأننا لم نفترق لحظة .

وأمسكت بيدها الصغيرة في يدي فوجدتها قد خلت من خاتم  
الخطوبة فغممني احساس من السعادة وقلت لها :

– سن تزوج في أقرب فرصة . كم كنت أخشى ألا تعودى .. وكـ  
كنت حائرا في تمنياتي ، بين أن تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن  
تشفى والا تشفى ؟ كنت أتمنى أن تشفى حتى يعود اليك ضوء عينيك ،  
وأتمنى ألا تشفى حتى تعودى أنت الى ؟ .

وأطرقت ، ثم أجابت هامسة :

– لم يكن هناك داع لهذه الحيرة .. فقد كنت عائدة عائدة ..

شقيت أم لم اشف .

– كيف ؟ !

– لقد ذهبت اليه قبل أن أذهب الى المستشفى ، وأعطيته خاتمه ،  
فقد ملكت أنت مشاعري وملأت نفسي . لقد قلت لى انك لا ترى هناك  
فرقا بيني مبصرة وبينى ضريرة فعزمت على أن أكون لك مبصرة ،  
أو ضريرة .

ورفعت يدها الى فمي فمسستها بشفتي وهمست قائلا :

– أرجو ألا يكون قد أحزنك فشل العملية ؟

– ما أحسست من فشلها قط بأى حزن ولا خيبة .. لقد كانت  
مجرد خيط واه تعلقت به ، حتى لا أهوى .. وكانت مجرد أمل براق

تعطلت به ، حتى لا أقضى من اليأس .. ما حاجتى اليه الآن وقد تبدد  
اليأس واستبدلت بخيط الأمل الراهي حبلا متينا من حبك وإيمانك ؟  
وأمسكت بيدها وضمتها الى صدرى وهمست فى أذننها :  
- نستطيع أن نكون شركاء فى ضوء عينى ولو خبا هذا الضوء  
عندى .. فلا خوف علينا : ان القلوب المضيئة ، لا يمكن أن يتعثر  
أصحابها فى ظلمات الحياة .

## رجل خاطئ

حدثني الصبي وقال :

- وأخيرا ، وجدت أبا !

انى أحس بالهدوء والراحة ٠٠ لم يعد هناك ما يبعثنى على ان  
اسير بين الناس كسير النفس ، مهبط الجناح •

لم أصبح بلا أب ٠٠ فلقد وجدت أبا •

هل تدري ما معنى أن يكون الانسان بلا أب ؟ انى لا اقصد أن يكون  
يتيما فاليتيم له أب قد مات . وموت الآباء لا يشين بنيتهم ، فقد كانوا  
أحياء يوما ما . فلما ماتوا خلفوا لأبنائهم اسمهم وتكرامهم ، أما  
الذى يضير الابن فهو ألا يعرف له أبا قط ، ويحز في نفسه أن يسأل :  
أنت ابن من ؟ فلا يعرف الا أنه ابن أمه •

أنا ابن حرام يا سيدى ٠٠ أو هكذا يقولون عني ٠٠ ولست أدري  
لقولهم معنى ، ولكنى أعرف أنهم يقولونه لى على سبيل التحقير  
والازدراء ٠٠ وأنهم يسبوننى به ٠٠ ولست أدري لم يسبوننى ، ولم  
يقولون عني ابن حرام ٠٠ ان كل ما فعلته هو أنى وجدت في هذه  
الحياة ٠٠ كاي كائن حي ضئيل حقير •

لقد وجدت نفسى موجودا فعشت . فما ننبى حتى يسبونى  
وينعتونى بابن الحرام ؟ ٠ اما كان خيرا أن يفتوا الرجل الخاطيء  
بابى الحرام والمرأة الضالة بأمر الحرام ٠٠ بدلا من أن يصبوا مقتهم  
على المسكين الذى لم يرتكب اثما فيسفروا منه فى كل لحظة ويقولوا  
انه ابن حرام ؟

انى لأنكر ائى منذ أدركت الحياة ٠٠ وأنا موضع ازدياء  
وسخرية ، ولست أرى كيف كان اولاد الحلال يعرقون اننى ابن  
الحرام ٠٠ لقد كان امرى يسرى بينهم كالبرق ٠٠ ان الناس أشار  
يا سيدى ، جيلوا على حب الشر والأذى ، وانطوت نفوسهم على  
الخبث والضعة ٠ لشد ما أمقتهم فانى لم أصادف منهم عطفًا ولم ألق  
حديبا ٠

أذكر كيف ذهبت الى الكتاب لأول مرة وقد أخذتنى أمى بيدها  
وأنا أهول بجوارها ٠٠ هى بملاءة اللف السوداء ٠٠ وأنا بالجلباب  
والحذاء والطريوش اللذين ارتديتهما يوم ذاك فقط ٠

تركنا حجرتنا بعد أن أغلقت أمى الباب بالمفتاح ويعد أن أوصت  
جارتنا أن « تأخذ بالها » من الحجرة حتى تعود ، فقد كانت المرة  
الأولى التى تغيب فيها عن الحجرة لأنها كانت دائما تتركنى ألهو  
أمام الباب عندما تذهب الى دور عملائها لتقوم بحياكة ثيابهم ،  
أو لتبيعهن بعض ما تتجر به من مناديل وحلى ٠

وعبرنا شارع زين العابدين سائرين فى شارع سليم حيث كنا  
نقطن فى نهايته من ناحية جبل الجيوش حتى وصلنا الى شارع  
النواوى والوقت ما يزال مبكرا والباعة لما يفتحوا حوانيتهم بعد ،  
اللهم الا ذلك الرجل صاحب البليلة والقول الذى اتخذ مكانه على  
خاصية شارع ممتاز فقد كان منهمكا فى العمل وقد اجتمع حوله  
الغلمان والصبية وأخذ يقلب البليلة بكبشسته الخشبية ، واخفتت

معالم وجهه وراء سحب البخار المتصاعدة من القروانة ، وبجوارها  
 بدت قدرة الفول النحاسية الحمراء اللامعة متكئة على جانبها •  
 مررنا بالرجل وتجاوزناه وما زالت ترن في اننى أصوات الصبية  
 الملتقين حوله صائحين : « بلميم بليله يا عم فضل » ، « بتعريفه فول  
 وزيت » ، « بنكله بليله ، ويتلاته مليم فول » •

وكم كان بودى لو وقفنا عنده برهة ففتناولنا شيئا من البليلة ولكن  
 امى كانت ممعنة فى السير ، ولم أحاول أن اطلب منها الوقوف فقد  
 علمتنى التجارب الا اطلب شيئا ، وان اقنع بما اعطى •

وصلنا أخيرا أمام باب الكتاب أو باب المدرسة • • مدرسة  
 الاجتهاد الأولية ، ووقفنا برهة حتى اصلحت امى ملاتها وبرقعها ،  
 ثم دلفنا الى الداخل •

كان يملكنى وقتذاك شعور مزيج من الرهبة والخشية ، رهبة  
 الاقدام على شئ جديد مجهول ، وخشية البقاء وحيدا فى المدرسة ،  
 فقد علمت أن امى ستتركنى وتذهب • • وأنا أخشى الناس كثيرا  
 وأتوجس منهم خيفة دائما •

كان باب المدرسة يؤدى الى ممر ضيق مظلم قد قامت على جانب  
 منه حجرة الناظر ، وبدا فى نهاية الممر فناء رحب تفرق فيه بعض  
 الصبية يلهون ويعدون ، وبعث منظرهم فى نفسى شيئا من العزاء  
 والطمأنينة فقد أيقنت انى بعد لحظات ساندمج فيهم ، واللهو كما  
 يلهون •

ويعد لحظة اقبل كهل أسود بالى الثياب ، عارى القدمين ، علمت  
 فيما بعد أنه عم شمط فراش المدرسة ، وحدجنا فى ضيق وتبرم وسأل  
 امى فى حلق :

– نعم ؟

ولم أدر سر هذا العداء الذى لاقانا الرجل به ، ولكنى أرجعته الى

طبيعة السوء والشر الكامنة فى نفوس الناس •

وأجابت أمى فى صوت رقيق :

— حضرة الناظر موجود ؟

ولم يجب الزجل بل دفع بقدمه الباب فانفتح على مصراعيه وقال :

— ادخلى •• أهو مرزى قدامك •

ودخلنا على الناظر ، الشيخ عبد الرسول ، وأقبلت عليه أمى تحييه باحترام ، ووقفت أنا بباب الحجرة مطأطء الرأس فى خشية ورهبة ، أقلب البصر بين آونة وأخرى ، فاحصا بعينى الرجل والمكان •  
رايت الرجل مرتبعا على أريكة قدرة ، وعلى رأسه عمامة بيضاء حمراء ، وأخذ يحملق بحفرتى عينيه الفارغتين ، ويتنخم ، ويسعل ، ويبصق ، ويمسح أنفه بظهر يده ، وفى اليد الأخرى مسبحة يحرك حباتها بين أصابعه •

ورأيت والدتى تقبل يد الرجل ، ثم تجلس على مقعد خشبى أمامه ، ولا أدرى ما دار بينهما من حديث ، فقد شغلنى عنهما مراقبة صرصار مقلوب فى ركن الغرفة وحوله النمل يجره الى جحر فى أرضها ، ولم أنتبه الا ووالدتى تفتح منديلها فتخرج منه بعض النقود تقدمها للشيخ ، ثم تنهض مودعة •

وسمعت الشيخ يصيح بشمط ، ويأمره بأخذى الى الداخل ••  
وسحبنى الكهل الأسود من يدى ودفعنى الى الفناء فوقفت فى وسطه حائرا مشدوها •

مضت بى الأيام الأولى فى مدرسة الاجتهاد ، وأنا تائه ضال ••  
مغرق •• لا أكاد افهم شيئا مما حولى •• أحمل لوح الصفيح تحت ابطى فى الذهاب والاياب ، وأدخل الفصل ، فأجلس بين الصبية شارد الذهن غارب البال ، واتضح لى أن الشيخ عبد الرسول هو كل ما فى المدرسة من مدرسين وأساتذة ، وأنه اذا ما طرأ عليه طارئ

حل شمس محلّه وتلقى العبء عنه ، فقام بكل أعمال النظارة والتدريس الى جانب أعماله الأصلية من قراشة وكنس ورش وتوريد أطعمة .

أجل يا سيدى توريد الأطعمة ، فقد كان عم شمس هو متعهد الطعام فى المدرسة ، فلا تكاد تحل فترة الظهر حتى نجده قد هل بوجهه الأسود الكالج حاملا فى يديه صفيحتين احدهما قد حوت مية لفت يعوم على سطحها بعض قطع اللفت ، والثانية حوت كمية لا بأس بها من القول النابت ، ويجلس الرجل فى ركن من أركان الفناء حيث يكون قد جهز الأربعة وقطعها شققاً ، ووضع فى جفنة بضعة أطباق سود فلا تكاد نبصره حتى نندفع اليه مخرجين ما فى جيوبنا من ملايم لنبتاع بها شقة وفول ، ومية لفت .

ومضت فترة من الزمن وأنا منطو على نفسى حتى بدأت أطمئن الى المدرسة والى الرفاق . وأخذت أتنمى معهم وأشاركهم فى لهرهم . وبدأت أفهم ما يلقيه ايانا الشيخ عبد الرسول من دروس فى الكتابة والحساب والقرآن . وكان الشيخ الضير يثير الذعر فى نفوسنا بخيبرانته التى ينهل بها علينا دون أن يابه أين تصيينا . كنت دائما أخشى الرجل وأتأى بنفسى عنه متقيا شره ، حتى حدث ذات مرة فى إحدى الفترات التى كان يغيب فيها عن المدرسة ووكّل أمرها وأمرنا الى شمس أن ضحك مع أحد الصبية فظننى الرجل أضحك عليه ، فما كاد الشيخ يحضر الى المدرسة حتى شكّا اليه أمرى . فنادانى الشيخ ، واقتربت منه خائفا وجلا . ومد الرجل يده الخالية فقبض بها على عنقى ثم صرخ فى وجهى قائلا :  
— ماذا يضحكك يا ابن العاهرة . لو كان لك أب لعرف كيف يؤدبك !!

وارتفعت يده بالعصى . ثم هوت على وجهى ، ورأسى وأنتنى

حتى سالت الدماء ، فاغرقت جليابى •  
واخيرا تركنى وانا اوشك ان افقد وعيى •  
وما ان افقت من هول الضرب حتى شرد ذهنى فى أشياء يبعث  
التفكير فيها بعض العزاء فى نفسى حتى قطع على خيالى اقبال  
الصبية •  
ونظرت اليهم فرأيت على وجوههم علامات الشماتة كأن مصابى  
قد اثلج صدورهم •  
وسألنى أحدهم :  
- أحقيقة أنك بلا أب ، كما قال سيدنا الشيخ ؟  
وأطرقت ، ثم أجبت به بساطة :  
- نعم •  
- وأين أبوك ؟  
وترثت برهة قبل أن أجيب :  
- لا أعرف •  
واندفع الصبية يقهقهون ويتصايحون ، ووصلت الى أننى  
اصواتهم المختلطة « هذا الأبله لا يعرف أين أبوه » ! ...  
وفى ذلك اليوم عدت الى الدار •• كسير القلب •• داعم العينين ،  
وقد طغت أوجاع نفسى على أوجاع جسدى •• فانا وحدى دون سائز  
الصبية بلا أب •• ولطالما رأيت جارنا عم عبد الرحيم الكواء يعود  
الى داره حاملا فى يده قرطاس الفسكهة ، ثم يرفع ابنه بين يديه  
ويحوطه بذراعيه الطويلتين ، ويفغر وجهه بالقبلات • لو كان لى  
أب كعم عبد الرحيم لشكوت اليه ما حل بى من عصا الشيخ ولعرف  
كيف يثار لى منه !  
وكان أول ما فهمت به عنئذ ما لاقيت أمى ، هو سؤالى إياها :  
- أين أبى ؟



ورفعت حاجبيها فى دهشة ثم سألتنى :  
 - لم تسأل ؟  
 - ان الصبية قد سالونى فلم اعرف بم اجيب •  
 ومدت اُمى ذراعيها فاحتضنتنى ، واجابت قائلة :  
 - عندما يسالونك مرة اخرى •• قل لهم انه ميت  
 وفى اليوم التالى وجدت الصبية فى الفناء •• فاقتريت من واحد  
 منهم اعرف ان اياه قد توفى ، ووقفت بجواره وصحت :  
 - لقد عرفت أين أبى •• ان أبى موجود مع ابيه •  
 ووضعت يدى فى يد الصبى •• ولكنى وجدته يبتعد عنى فى  
 نفور وازدراء وصاح بى :  
 - ان أبى المعلم على العتر مات قتلا فى معركة فى احدى الزقات  
 ولكن من يكون أبوك انت ؟ وكيف مات •• ؟  
 وارتح على •• ولم اعرف كيف اجيب •• واندفع من بين الصبية  
 واحد يصيح بى :  
 - يا ابن العاهرة •• ان أباك لم يميت •• ولقد سالت سيدنا  
 فاجاب انك ابن حرام •  
 ويكيت •• فما كان أمامى سوى البكاء •  
 انى أريد ابا أسكت به هؤلاء السفلة الأوغاد •  
 ومنذ ذلك اليوم اضحيت أضحوكة الصبية •• وتعودت منهم  
 السب والضرب ، وعلمت نفسى على الأذى والمكروه •• حتى كان  
 ذات يوم طفق فيه الكيل •• وكنا اذ ذاك خارجين من المدرسة قبيل  
 العصر ، وقد سرنا ثلة من الصبية •• واخذوا كعادتهم يسلمون  
 انفسهم بقنفى بالفاظ السباب •• واقترب منى أحدهم واختطف  
 طربوشى وقذف به الى الأرض الوحلة ، ولم اتمالك نفسى فلطمته  
 على وجهه •

ولم أشعر بنفسى بعدها الا زائنا ملقى فى الطين ، والصبية ينهالون على يقبضاتهم يريدون القضاء على ٠٠ لولا ان سمعت صوتا خشنا ينهرهم ٠٠ ثم رأيتهم ينفضون من حولى متفرقين ، وأحسست بيدين قويتين ترفعاننى من الأوحال ويربتان برق على ظهري ، ورأيت وجها يرمقنى فى عطف ويسألنى هل أصابنى أذى ؟

لم يكن الصوت غريبا على ٠٠ فقد كان صوت عم فضل الذى سحبنى من يدي ، وغسل لى وجهى . وأزال الطين عن ثيابى ، وأمسك بسكين البسيبوسة واقتطع من الصينية قطعة كبيرة قدمها الى ٠٠ فهزرت رأسى بأسف وقلت فى نلة :

— ليس معى نقود .

فابتسم الرجل وقال انه لا يريد نقودا .

لست أدري يا سيدى كيف أصف لك الشعور الذى انتابنى وقتذاك ، بين كل تلك القلوب المتحجرة ، وفى تلك الدياجير الحالكة من القسوة والفظاعة ، قد لاحت لى بارقة حنان ، وتفجر نهر عطف ، ونبع حب ، وأمسكت بقطعة البسيبوسة ، وغرست فى عجبتتها اللينة المعسولة أسناني ، وسرعان ما أجهزت عليها ~

ونظر الى الرجل فى عطف وسألنى عما دفع بالصبية الى ضربى ، فقصصت عليه كل شئ ٠٠ وشكوت له هم نفسى .

وانتهيت من شكواى ، ولم أستطع أن أغالب الدمع الذى انهمر من عيني وقلت بصوت خفيض :

— ان شئما فى الأمر انتنى لا أستطيع أن أقول لهم من يكون أبى ؟

وحقق الرجل برهة ، ثم قال فى مرارة :

— عندما يسألونك قل لهم ان عم فضل أبى . سامع ؟

وأشرت برأسى علامة الموافقة ٠٠ وأخذت أتأمل الرجل بجسده

الضخم ، وشاربيه المفتول ، وطاقيته الشبيكة ، وأحسست بالغبطة  
تملاً نفسى .

هذا والله خير أب !! انتى أستطيع أن أقحم به الصبية اذا  
ما سألونى مرة أخرى .

ومرت بضعة أيام لم يحاول أحد الصبية أن يهاجمنى فيها وكنت  
خلالها قد وجدت من عم فضل نعم الأب .  
وفى ذات يوم تحرش بى أحد الصبية . ولطمنى لكمة شديدة .  
وكان الصبى أكبر منى جسماً . فنظرت اليه وقلت له والبكاء  
ينخنقنى :

— سأخبر أبى حتى يعرف كيف يؤدبك .

وانقجز الصبية مقهقهين ، وصاح بى الصبى ساخراً :

— أبوك . أنت لك أب ؟

— أجل . أبى عم فضل ، وسيعرف كيف يؤدبكم جميعاً .

وازداد ضحك الصبية ، وأخذوا يتصايحون من حولى ساخرين  
وعاد الصبى يقول :

— أبوك عم فضل ؟ والله لو سمعك تقول هذا لحطم رأسك .

هل تستطيع أن تحضره غدا لتأديبى . أيها الكذاب المنافق ؟

وصاح صبى آخر :

— لعله قد أضحى رفيق أمه !

وفى ذلك اليوم لم أذهب الى عم فضل ، ولكن الرجل لحنى فعدا

ورائى ، وسألنى عما بى فقصصت عليه ما حدث .

وكفكت دمعى ، وربت على ظهرى ، وسألنى أن أنتظر برهة .

وبعد لحظة خلع فوطته وأمسك بيدي وعدنا سويا الى البيت .

ولست أدري ما دار بينه وبين أمى . ولكن رأيت أمى وقد انهمر

دمعها . وطلطات رأسها . وربت الرجل عليها فى رفق وحنان ،

ثم غادرنا ، وعاد بعد برهة ، ومعه ثلاثة رجال أحدهم شيخ معمم ومعه دفتّر كبير .

وفى تلك الليلة انتقلت أُمى الى بيت عم فضل . وفى الصباح اصطحبني الى المدرسة ، ودفع باب الناظر بعصاه وضرب الأرض بها ضربة جعلت الشيخ الضرير يقفز من مكانه ثم صاح به — اسمع يا شيخ قرد . هذا الولد ابني . أنا أبوه . إذا لحقته منك أية اهانة أو أذى ، فسأجعل من جثتك النجسة طعاما للكلاب . فاهم ؟

وتركنا الحجرة ، وذهبنا الى الفناء . ولحمت شمط قد اختبأ فى احد الفصول . ووقف عم فضل بين الصبية وصاح : — يا اولاد ! انى أبوه . فإذا كان لأحدكم أب خير منى فليحضر الى عربتى حتى أحطم رأسه . ومن ذلك اليوم لم يجسر احد على اهانتى بكلمة واحدة أو يقول اننى بلا أب .



انتهى الصبى من سرد قصته على . وغلبنى التأثر فلم أنبس بينت شفة . وطأطأت رأسى ، وشرد بى الذهن ، فتخيلت عم فضل كما وصفه الطفل ، فأتقن وصفه . فقد كنت أعرف الرجل خير معرفة .

واحسست نحوه باكبار واجلال ، ورأيت خيرا أنواع الرجال . توضحية ومروءة ومفجرة . فلقد ضحى بكرامته ، ووهب نفسه إيا للطفل الذى لا أب له . وتزوج من أمه الخاطئة وغفر لها خطيئتها من أجل الصبى المسكين . وبعد بضعة أيام مررت بالرجل ، ووقفت أمامه برهة ، وبعد أن .

اعطاني- ما طلبت من البسبوسة .. حدثته عن زواجه من ام الصبى،  
ثم شددت على يده وهمست فى أذنه :  
- انك رجل شهيم ، وسيغفر الله لك كما غفرت خطيئة المرأة .  
وسيعوضك عما أسديت الى الطفل خير الجزاء .  
ونظر الى فى دهشة ، ثم أطرق برأسه وسمعته يتمتم :  
- يا سيدى .. غفر الله لنا ولكم .. لم أفعل خيرا ، ولم أظهر  
شهامة ، ولم أغفر خطيئة .. ان الصبى هو ابنى فعلا !



## رجل ورسالة

صفق القواد وهفا ، وتغنّى وترنم ٠٠ ومسه من نكرى صاحبه  
سحر جعله من فرط الطرب يرقص ٠

يا للقلب الثمل النشوان ٠٠ الذى تكاد تسمع فى خفقاته رجفة  
شوق وصبابة ٠ كل هذا قد فعله به مجرد خيال طاف به ، أو طيف  
حام من حوله ؟

بهذه الكلمات بدانى صاحبى الحديث ، وقد جلسنا نرقب المياه  
المتدفقة النائرة وقد تفجرت من نبع بين الصخور ٠ وأخذت تتلمس  
طريقها بين الحصى والحجارة ، ثم تلتقى متجمعة فى مجرى يشق  
الأرض فى لين ورفق ٠٠ فينفخ فيها الروح كأنه الشريان يجيش بماء  
الحياة ٠٠

كان الوقت أصيلا وقد اصطبغت السماء بحمرة الشفق ، وبدت  
قرية « البايضى » فى الواحات البحرية هادئة ساكنة بعد أن أوى  
أهلها الى أكواخهم المتواضعة ، التى أحاطت بها النخيلات وأشجار  
البرتقال والليمون ٠

ونظرت الى صاحبى ٠٠ فادهشنى تلك الشبه العجيب بينه وبين  
الينبوع الذى يتفجر منه الماء فقد كان هو الآخر ينبوعا متفجرا

بالخب ، ورأيت كلا منهما قد نبع فى صحراء مجدية قفراء ، لا حياة فيها ولا ماء ولا رواء ٠٠ ولا خضرة ولا نضرة ٠٠ فاذا بالنبت يزكو ٠٠ والطيور يشدو ، واذا بالبقعة الجرداء قد صارت وكأنها قطعة من الفردوس ٠

ولم تكن لى قديم معرفة بصاحبى هذا ٠٠ فما أنكر اثنى رأيته قبل ان ألتقى به فى هذه الواحة النائية : التى كان يعمل بها طبيبا ، ومع ذلك لم يكد يمشى على تعارفنا يوم أو يومان حتى رأيتنى أنس اليه وأحس بمتعة فى الجلوس معه ، ولذة فى سماع حديثه ٠

ورغم أننى لم أقبل القيام بهذه الرحلة التفتيشية الى الواحات الا على مضض ٠٠ ورغم أننى قد عزمتم على الا يطول بقائى فيها الا بالقدر الذى يسمح لى بانجاز عملى على عجل اشد العجل - اذ كنت وقتذاك خاطبا - فقد رأيت الأيام تمر بى وأنا لا أحس بملل من المكان أو رغبة فى الرحيل عنه ٠

أجل ٠٠ لقد أحببت المكان وصاحبى فيه ٠٠ وجذبنى سحر ينبوعين : ينبوع الماء ٠٠ وينبوع الحب ٠٠ فقد كانا يكونان معا شيئا فائقا خلايا ، وكان الواحد منهما متمما للآخر ، فما أظن المكان وحده ، أو الفتى وحده ، كان يستطيع أن يفعل بى ما فعله بنفسى مجتمعين ٠٠ فيلهينى عن العودة الى صاحبتى التى ما ظننت أن هناك فى هذا الكون ، ما يستطيع أن يلهينى عنها بعض الوقت مهما بلغ من السحر والفتنة ٠

وأظن القراء على صواب عندما يصمون بالسخف ذلك الذى يدعى أن طبيبا فى واحة الهاء عن حبيبته أو خطيبته ٠٠ ولكن لو قدر لهم أن يروا - أو استطاعوا أن يتخيلوا - تلك الأشجار الخضراء المتكاثفة التى تبلت منها الثمار الممتلئة ، وتلك القرية الذهبية وقد



شقها الجرى اللجبنى ، أو يستمعوا الى شذو الطير وهمس الغصون  
وخرير النبع . أجل لو قدر لهم أن يبصروا بما بصرت من سحر  
المكان . لما رأوا فيما أقول سخفا وما أنكروه عجبا .  
هذا عن سحر المكان . أما عن الفتى . أو ينبوع الحب . فقد  
كان ، وإيم الله ، فتى عجيبا .

كان متألئى العينين حلو التقاطيع دائم الابتسام . وكان أعجب  
ما فيه قدرته على التحدث عن أمور الحب . فكان يحملنى بإحساسه  
المرهف ، وشعوره الفياض الى عالم مفعم بالرضا والسعادة ، ويحمل  
ذهنى الى ناحية من التفكير الجميل الذى يقارب جماله جمال المكان ،  
فأحس كأن جسدى فى روضة وذهنى فى روضة ، ويتضاعف عندى  
الشعور بالجمال والاحساس بالفتنة . فليس يكفى المرء لكى يتمتع  
بجمال الكون أن يحيط به ذلك الجمال بل يجب أن يصفو ذهنه ويهدأ  
تفكيره ، حتى يستطيع حقا أن يحس بمتعته .

كان يحدثنى عن الحب . فكنت أحس بمتعة من حديثه أكثر  
مائة مرة من المتعة التى أحسستها من الحب نفسه . وكنت أجزم  
فى نفسى أن ذلك الذى أصابنى فيما مضى من الأيام وظننته حبا .  
لم يكن قط حبا ، إنما الحب هو ذلك الشيء الذى يضئ جوانح الفتى  
ويشع من قلبه فيغمره ومن حوله بسنا مشرق وضاء .

كان شاعرا وموسيقيا ، وكنت أحس عذوبة فى صوته . وما أظننى  
قد طربت لسماع الشعر ، كما طربت عندما اسمعنى تلك الأبيات التى  
تفيض عذوبة وتسيل رقة . لقد كانت له قدرة عجيبة فى الالقاء .  
فكان يحملنى على الاصغاء اليه وأنا الذى لا أنكر أنى قد استطعت  
من قبل أن أرغم نفسى على الانصات الى أى متحدث ، مهما بلغت  
خطورته دون أن يشرذ ذهنى فى منتصف الحديث . لقد علمنى كيف  
أندرق الشعر . وأستمع به ، وقد كنت من قبل لا أرى فى الشعراء

الا مجانين مولعين بالقوافى والأوزان .

ولقد سمعت من قبل الكثير من الموسيقى والغناء ولست أتهم نفسي بجمود الحس ، فادعى أنها لم تك تطربني وقتذاك ، ولكنى مع ذلك لم أكّد أسمع من الفتى قصيدة « ردت الروح » حتى خيل لى أن هاجع الاحساس منى قد تيقظ وأحسست كأنما قد ردت الروح فعلا فقد كان للحن الأنشودة وصوت الفتى « سحر لعمري له فى السمع ترديد »

ولم أكن أعلم الشيء الكثير عن قصة الفتى العاشق حتى جلس الى فى ذلك الأصيل ، وأخذ يحدثنى عن ذلك القلب الذى خفق زهفا .. والذى مسه من ذكرى صاحبه سحر جعله من فرط الطرب يرقص ثم رأيتته ينشر بين يديه رسالة قد طويت بعناية وانهمك فى قراءتها وسألته ضاحكا :

— رسالة حب ؟

— أجل .

— من صاحبك ؟

— كلا ..

— الى صاحبك ؟

— بل منى الى نفسى .. لقد وجهت فيها الحديث اليها وأنا أعلم

سلفا أنه لن يصل الى مسامعها لأنى لا أعلم كيف أوصلها اليها ..

ومع ذلك فقد كتبتها لأنى أحسست بلذة فى كتابتها .. كما أحس بلذة

فى قراءتها كلما هزنى الشوق اليها .. أجل يا صاحبنى هى رسالة

منى الى .. أنا كاتبها وأنا قارئها .

ثم عاود القراءة ، وبعد برهة مد الى يده بالرسالة وهو يقول

باسما :

— خذ .. سل نفسك بهذيان خجنون !!

وأمسكت بالرسالة مجيبا إياه :

ـ لقد احترمت المجانين منذ لقيتك ٠٠ وكرهت رؤية العقلاء ٠  
وبدأت أقرأ الرسالة فى تأن وتمعن ٠٠ كما يرتشف مدمن الخمر  
كأسا معتقة ٠٠ وبخيل الى أن الفتى حين كتبها قد أمسك بالقلم بين  
ضلوعه لا بين أصابعه ٠٠ فقد أحسست بحرارة عجيبة تنبعث من  
الكلمات ، واليك الرسالة :

» يا صاحبتى ٠٠

قوة الخيال قد أضحت سلوى ٠٠ وزادت فى نفسى القناعة حتى  
أصبحت أكتفى بطيفك ٠٠ وحتى أضحي مجرد تصورك وتخيلك ٠٠  
يذهب عنى اللوعة ٠٠ ويضيع الشجو والشجن ٠٠ وماذا أملك  
يا صاحبتى غير الذكرى أجترها من جوفى كما تجتر الإبل غذاءها  
المختزن اذا ما برح بها السغب وشفها الظما ٠٠ لا فرق بيننا الا أن  
غذاء الإبل ينقد ٠٠ ونكرارك المختزنة فى قلبى لا تبلى ولا تنفد ٠  
ما زوعنى بعدك ، يا حبيبتى ، وما ألم نفسى ٠٠ لأن نفسى قوية  
الأمل شديدة الايمان بالله وبك ٠٠ وانى أحس أنك قد بت - على بعد  
الشقة - أقرب الى نفسى من أى وقت آخر ٠٠ فقد زادنى البعد ولها  
وولعا ٠٠ حتى ليخيل الى أن بيرون قصصنى بقوله : « أن الفؤاد  
لتيقنت على البعد فلا يزداد الا ولعا ٠٠ كالمرأة تريك صورتك ثم  
تقتت فتريك ألف صورة » ٠

الناس من حولى يشكون الوحدة المضية ٠٠ ويلعنون تلك  
اللحظة التى ألت بهم فى هذه الوحشة فأبعدتهم عن الصحب  
والخلان ٠٠ وانا وحدى أحس أن نفسى قانعة راضية مغتبطة ٠٠  
لأنى ما شعرت قط بالوحدة ٠٠ فانك أمامى دائما ٠٠ فما بارحت  
صورتك مخيلتى وما غادر طيفك رأسى ٠٠ فاضحكى يا حبيبتى لأنى  
أسمعك ٠٠ وحدثينى كما فعلت فى ساعة اللقاء ٠٠ فما زلت معى  
وما زلت معك ٠

كم حاولت ان اكتب لك قبل الآن .. ولكنى كنت اعلم ان كلماتى  
ستتطبق عليها الصفحات فيطويها الزمن .. او ستتطاير كما يتطاير  
الهشيم وتذروه الرياح .

انى لأنكرك حين رايتك اول مرة وانت طفلة لاهية وقد وقفت فى  
قناء المدرسة مرتدية المريلة السوداء ، وحولك بضعة اطفال يلعبون  
الحجلة ، وكنت عائدا حين ذاك من المدرسة وقد تأبطت بضعة من  
الكتب فلمحتك من خلال السور الحديدى .. بشعرك الذهبى المتطاير  
وراءك والذى لا يكاد يستقر فى مكانه ، وعينيك الزرقاوين المتلالتين ،  
وانفك الدقيق الذى لا يكاد المرم يبصر فتحتنه ، وشفتيك الرقيقتين  
القرمزيتين ، وتلك الحمرة التى قد كست خديك قبدا كانهما جمرتان  
ملتهبتان .

وتعودت من ذلك اليوم ان اواظب على العودة من المدرسة فى نفس  
الموعد لكى ارقبك وانت تتوثبين فى الفناء حتى نشأ بينى وبينك نوع  
من الصداقة العابرة والتعارف بالنظرات والاعين .

وكانت صويحباتك لا يكن يبصرننى حتى يتهاوسن فيما بينهن  
ثم يسرعن لانبائك بوجودى .. فتلتفتين الى وقد شاع فى وجهك  
السرور ، واقترا ثغرك عن لآلىء منضدة ، وكان لتلك النظرة والبسمة  
لذة فى نفسى لا أظن كثيرين من الناس احسوا بها .. فهى أشبه بتلك  
اللذة التى يحسها المؤمن المتعب حين يفرغ من عبادته .. ويشعر  
ان الله قد رضى عنه .

ومرت الايام والشهور والسنون وبدأت مرحلة النضج .. وأخذت  
تتحولين من طفلة لاهية الى فتاة رزينة واعية .. وبدأت تضنن على  
بتلك الابتسامة التى كنت تمنحنيها اياى فى غير كلفة ودون تفكير ..  
واستبدلت بها ذلك الاحمرار الذى يكسو وجهك والخجل الذى يعتريك

كلما التقت عينانا ٠٠ وأصبحت صويحباتك أكثر حكمة واتنادا ٠٠  
فاستبدلن بالاشارات غمزا خفيفا وهمسا رقيقا ٠

وقى ذات يوم عدت من المدرسة كعادتى ، فراعننى أن وجدتهم قد  
سدوا فتحات السور الذى كنت أطل عليك منها ، ولكننى عولت على  
أن انتظرك حتى تغادرى المدرسة فالحك وأنت تصعدين الى العرية ،  
وتبتسمين لى ابتسامتك التى تشرق فى نفسى فتضىء جوانحى ٠٠  
ورأيت زميلاتك يشرن لى باسما ٠

ثم تبدل أمرك بعد ذلك ، فكنت اذا رأيتنى ، تعمدت الا تلتقى  
أبصارنا ٠٠ وكسوت وجهك حلة من الجد والغضب كان مرأى  
يسوءك ويؤلك ٠٠ فأصابتنى دهشة اليمه ، وأحسست بالمرارة تفيض  
فى نفسى ٠٠ وبالألم يحز فى قلبى ٠٠ وتمنيت لو سئحت لى الفرصة  
لأسالك عما بدل ما بنفسك ٠

وأخيرا سئحت الفرصة ٠٠ فقد التقينا وحيدين ٠٠ وجها لوجه  
٠٠ فى معرض للزهور ٠

وتصافحنا اذ ذاك ، وتلاقت أيدينا لأول مرة ، فأحسست برجفة  
تسرى فى جسدى ٠٠ ولم أصدق أنني فى يقظة ٠٠ فقد كان بعيدا على  
أن القاك وحيدة فى المعرض ٠

وغادرنا المعرض فسألتك أن نجول برهة فى الحديقة فوافقتنى بعد  
تردد قصير ، ونأيت بك الى خلوة فجلسنا نتحدث ٠٠ ولم يكن الحديث  
بالأمر اليسير علينا حينذاك ٠٠ فقد كان لدقات قلبينا صوت مسموع ،  
وكنت أحس بقلبى يكاد يقفز من بين أضلعي ٠

وكان أول ما سألتك عنه هو سبب تلك الاعراض والتجاهل ٠٠  
فأجبتنى بنظرة رقيقة بددت من نفسى بقايا سحب قاتمة من التشكك  
وأنباتنى أنك لا تستطيعين الا أن تستخفى بهذا المظهر فقد كثر حديث  
صاحبائك عنك حتى أصبحين يسمينك العاشقة ٠٠ وأنت خشيت عاقبة

هذا اللغظ منهن فلم تجدى بدا من أن تتجهى لى وتنكرى على  
ما يبدو لهن حتى يكففن عن غمزن ولزهن  
واخبرتك حينذاك أن لا ضير من علاقتنا ، لأنها علاقة حب سينتهى  
برابطة قدسية شريفة ، ورأيت عينيك تبرقان بالسعادة وقلت ان الوقت  
لم يحن بعد ، فأجبتك مؤكدا أنى سأخرج بعد بضعة أشهر ، ولن  
يكون هناك حائل بيننا وبين الزواج .

وطال بنا الوقت ونحن نتحدث عن أمانينا وأحلامنا . . ثم وجدنا  
الوقت قد سرقنا . . أو على الأصح أننا قد سرقنا الوقت . . وممننا  
بالعودة وكنت أحس بلهفة الى أن أقبل يدك ، فأمسكت بها فى شوق  
وشغف ، ورفعتها الى شفتى ، وأنا أخشى أن تسوءك منى هذه  
الجرة ، ولكنى شعرت بك تقترين منى بجسدك ، وأحسست بيدك  
تحيطان بعنقى ، ووجهك يلاصق وجهى ، ويعبير أنفاسك العطرة  
يختلط بأنفاسى الملتهية .

أبضرت عينيك تنظران الى فى لين ورفق ، وأحسست طرف أنفك  
يلامس طرف أنفى ، فمددت شفتى أمس بهما شفقتك مساً خفيفاً ، كما  
يجالو الجائع أن يتمتع بتذوق الطعام قبل التهامه ، ثم أطبقت عليهما  
بشدة وعنف وضغطتهما ضغطاً شديداً .

ولم تسنح الفرصة بعد ذلك الا بقاء عابر ولحاحات خاطفة ، حتى  
تخرجت بعد فترة قصيرة ثم عينت فى هذا المكان النائى ، فرحلت دون  
أن أتمكن من لقياك ، ومع ذلك فأننى ، كما قلت لك ، قرير العين هادىء  
البال ، فما روعنى بعدك وما أوجعنى ، لأن نفسى قوية الأمل ، شديدة  
الايمان بالله وبك .

أجل ! سنلتقى ثانية « وأحسن الأيام يوم أرجعك » .

★ ★ ★

وانتهيت من قراءة الرسالة الملتهية ، وطويتها فى يدى ، وشردت

ذهنى بعيدا ، ورأيتنى أفكر دون وعى فى الفتاة التى خطبتها منذ أشهر قلائد وكيف رحب بى أبوها أشد الترحيب ٠٠ ولكن الفتاة العنيدة كانت ترفض الزواج رفضا باتا ، حتى انتهى الأمر بأبيها الى أن يعدنى بأنه سيحاول اقناعها وطلب منى أن أحاول أنا الآخر من جانبى التقرب اليها ٠

واستدرجتها ذات مرة ، فأنبأتنى بصراحة أنها تحب ، وأنا لا تريد الزواج لأنها تنتظر من تحب ٠

ونظرت اليها نظرتى الى طفلة طائشة ، فقد كنت فعلا لا أراها أكثر من طفلة ، وأنباتها بأنها بلهاء لأنها تتعلق بحب وهمى ٠ وأنه لو كان ذلك الشخص الذى تظنه يحبها ، يحبها حقا ، لما تردد أن يتقدم للزواج منها ٠ ثم أنباتها أن ذلك الحب الذى تتخيله لا ضرورة له ألبتة فى الزواج بل انه يتطاير تطاير الدخان فى الهواء ، وأن نجاح الزواج يتوقف على توافق الطباع ٠ وقلت لها ان الرجال لا يؤمن جانبهم ، وان أغلب الظن أن صاحبها قد نسيها ، وأنه قد استعاض عنها بغيرها ، فالرجال لا يشبعهم حب امرأة واحدة ٠

ورأيت خيبة الأمل ترتسم على وجهها والشك يلوح على قسماتها ٠ ومرت بى الأيام وأنا أحاول أن أبرئها من ذلك الحب وأشفيها من ذلك الشيء الذى تخيلته علة ومرضا ، حتى نجحت أخيرا فى أن أجعلها تقبل الخطبة ، وان كنت لم أنجح فى أن أزيل ذلك الحزن الذى كان يعتمل فى قلبها وأنا أليساها خاتم الخطبة ٠

ونظرت الى صاحبى نظرة سريعة ، ثم رأيتنى أسأله :

— ما اسم صاحبتك ؟

ودهش الفتى لسؤالى ولكنه نطق بالاسم ، فسرت فى بدنى رعدة هزتنى من أخصص قدمى الى قمة رأسى ، وبدرت منى صرخة مكتومة ٠ لقد كانت فتاتنا واحدة ! ٠

وتذكرت ما قلته للفتاة من أن صاحبها قد نسيها واستبدل بها غيرها ، وأحسست كأننى قد أجمرت فى حقها وحقه . لقد حاولت أن أقبر حيا ندر فى هذا الزمن وجوده ، حبا من ذلك النوع الذى خلده التاريخ .

• وقفز أمامى شيطان الأتانية ينبئنى أن الفتاة من حقى وأنى أستطيع أن أنسيها حبها وأن أترك الفتى فى أوهامه وأحلامه ، فلا بد أن الزمن سيبرئه من حبه .

وأحسست بحيرة شديدة •• وعصف برأسى التفكير ، ولكنه لم يطل بى فقد مددت يدى الى أصبعى فنزعت منه خاتم الخطبة ، وأمسكت بيد صاحبى فى الظلمة فوضعت الخاتم فى أصبعه ، لقد كان هو أحق به • ودهش الفتى دهشة شديدة ، ولكنى أنبأته بجلية الأمر فى صوت خافت ، وقلت له اننى سأسوى الأمر من جانبى ، وسأفعل له كل ما يلزم وليعتبر الخاتم هدية منى ، على أن يهب لى شيئا واحدا ، هو تلك الرسالة التى كتبها الى صاحبتة لا لأنى أريد أن اتعلم منها الحب ، فأغلب ظنى اننى قد جاوزت مرحلة التعلم ، بل لأعلم بها اولادى فى صباحهم كيف يحبون !!



# رجل مجهول

عزيزتى :

هذه رسالة مجهول ٠٠ ما خطر بباله قط - مذ عرفك - انه منك  
مجهول ٠٠ حتى لقيته فأنكرته شر انكار ، ونظرت اليه وهزئت رأسك  
وقلبت شفتيك وسألته « من تكون ؟ » فأرقت بسؤالك لا ماء وجهه ،  
بل ماء روحه ٠٠ وتركته عودا يابساً وكومة من هشيم .  
أنا يا صاحبتى ذلك النكرة ٠٠ الذى أراق على قدميك خلاصة  
روحه ، وعصارة نفسه .

يا للروح الذى ذهب بددا ، ويا للنفس التى ضاعت شظايا .  
أنا المجهول الذى لا تعرفين ، والذى يعرفك خيرا من معرفتك  
نفسك . أنا المجهول الذى رفعك الى الذروة وهويت به الى الحضيض  
٠٠ أنا الذى صنعتك فحطمتنى ٠٠ أنا الذى وهبت لك الخلود فأبيت  
على حق العرقان .

ترى هل ستعرفينى هذه المرة ؟ أم أننى ما زلت عندك نكرة  
مجهولا ؟ أنا لا أستجدى عرفانك ، فسواء عندي أعرفتني أم لم  
تعرفينى ، لقد أضحيت عندي شيئا وهما لا اثر له فى عالم الحقيقة ،  
وما عاد بى شوق الى رؤيتك ولا لهفة على لقائك .

لا عتاب بيننا يا ساحرة ، ولا حساب ولا لوم ولا تأنيب ، وكيف  
 ألومك والعلة فى نفسى والداء فى قلبى وفى روحى ! ما ذنبك وقد  
 جعلت منك ما لا قبل لك بأن تكونيه لا أنت ولا أية امرأة سواك ..  
 ما ذنبك وقد سلطت عليك من أوهام نفسى الشاعرة المرفهة ما صنع  
 منك مخلوقة وهمية ليست لها بالواقع صلة ، وجلعت عليك من  
 الأضواء ما جعلك تشعين بالسحر وأنت الخابية المظلمة ، وألبستك  
 من نسيج الأوهام ما جعلك فى مصاف الآلهة .  
 ما ذنبك أن أجعل منك معبودة ولست . الا امرأة .  
 امرأة ! .. لشد ما أبغض النساء من أجلك .. بعد ما أصبنتى  
 بذلك الخذلان وملأت نفسى بمرارة الهزيمة .

★ ★ ★

كيف لقيتك أول مرة ؟ وكيف كنت أنت ؟  
 لقيتك على شاطئ البحر .. لقاء غير عادل .. فانت تدرين  
 ما يعنى شاطئ البحر بالنسبة لك ، وتدرين أية فارسة انت فى هذا  
 الميدان ، وبأى أسلحة ماضية تصرعين القلوب وتأسرين الأرواح ،  
 وتعرفين كيف يجردك البحر من ثيابك فكانما سل سيف الفتنة من  
 غمده .. وأطلق سهم السحر من قوسه .. سيف قاطع بتار ، وسهم  
 مارق مشحون ، لا يخطئ الهدف .  
 كيف كنت ؟ سلينى أنا ، فأنا أدرى الناس بك ، ومن غيرى يستطيع  
 أن يصفك ؟ وقد انطبع صورتك فى ذهنى وفى قلبى منذ رأيتك أول  
 مرة ، فلم تغادرهما ، حتى بعد أن تجاهلتنى ، وألقيت بى فى زوايا  
 النسيان .

كنت متكئة على رمال الشاطئ وكان أول ما أبصرت منك موجات  
 من شعر تهدلت على كتفك وانسابت على ظهرك ، ووقفت أرقبك  
 مشدوها زائغ العينين ، فاغر الفم ، وجنبنى صاحبى من يدي  
 وسألنى فى دهش :

— ما بك ؟ ! —

ولم أجبه ، وسرت بجانبه ونظري مثبت في شعرت وفي جسدك  
المنبسط على الرمال .

وعدت اليك مرة ثانية ، لأجذك تتوطين على الشاطئ في مرح  
الطفولة اللاهية العابثة ، ورأيت جسدك قد استقام ويا له من جسد  
نموذجي كامل . . قد شدد المايوه ، وأبرز مفاتنه ! .

واتخذت لى مكنا أرقبك منه خفية ، من غير أن أحس في ذلك  
حرجا أو خشية .

ونظرت الى وجهك ، فلم أجده غريبا عني . . وكأني لا أبصره  
لأول مرة ، بل كأن بيننا ود قديم . . ولم أر به ذلك الجمال  
المجلوب ، وانما رأيت جمالا لا أثر فيه لصنعة ولا تطرية . .  
فلا الحاجبان مزججان . . ولا الشفتان مرسومتان . . ولا دهان  
ولا أصباغ . . بل وجه تعهدته الشمس فصبغته بسمرة حمراء كلون  
الخوخ . . وعينان بهما خضرة صافية ، وشفتان دائمتا الابتسام  
عن ثنايا لؤلؤية فلجاء يبدد مراها الهموم ويطرد الأحزان .

ومنذ ذلك اليوم ، لم يعد لى شاغل في الحياة سواك . . أجوب  
الشاطئ كل يوم باحثا عنك حتى اذا رأيتك أحسست بالهدوء  
والراحة ، واخترت بعد ذاك نقطة مراقبة أرقبك منها كأني حارس لا  
تغفل عيناه ، فاذا سرت تبعتك ، واذا نزلت البحر هبطت وراءك أذرع  
البحر جيئة وذهابا . . لا تخفيك عنى أمواج الماء ولا أمواج البشر . .  
أميز رأسك بين مئات الرؤوس المنبثة في الماء مهما تبعد بيننا المسافة .  
ومضى الصيف وأنا على هذه الحال ، قانع منك بذلك القدر ، لا اكاد  
أرى ان كنت قد أحسست بى بين مئات الذين يزخر بهم الشاطئ . .  
أو كنت قد ميزت عيني بين مئات العيون اللهفي .  
وافترقنا بعد ذاك . . وحل الشتاء . . ولم تكن الفرقة بيننا لتعنى

فرقة حقا ٠٠ فما أحدثت فينا تغيرا يذكر ٠٠ وما أحس لها أحدنا أي أثر ٠٠ فمن ناحيتي أنا لم يطرأ على جديد سوى أنني نقلتك من رأى البصر الى رأى الذهن ، واستعضت عن مراقبتك بالعين تتبعك بالذاكرة ، وما اظن احدهما تختلف كثيرا عن الأخرى ٠٠ فما كنت انال منك بالبصر أكثر مما انال بالتفكير ٠

أما من جانبك أنت ٠٠ فما كانت الفرقة تعنى لديك شيئا ٠٠ وبماذا تضيرك فرقة من لم تحس وجوده ؟ ٠

واستبدت ذكراك بنفسى ، وملكت على كل تفكيرى ٠٠ وبدأت اتخذ منك ملهمة ٠٠ أستلهم منها كل ما أكتب ٠٠ فكنت تقيضين على بالحياة ٠٠ وتمنحيننى من وحيك ما يملأ كتابتى حرارة وحسا ٠

وأدبر الشتاء ، وأقبل الصيف مرة أخرى ، وكان بنفسى اليه حنين ولهفة ٠٠ فقد أضحى الصيف يعنى لدى شيئا واحدا هو أنت ٠٠ أنت وحدك ٠٠ ولا أحد سواك ٠

ومرت بضعة أيام وأنا أطوف الشاطئ باحثا عنك من غير أن أعثر لك على أى أثر ، ورأيت صاحباتك اللاتي تعودت أن تجلسي بينهن ، وهممت - لولا الحياء - أن أسألهن عنك ٠ أسأل عن حورية البحر ذات الشعر المنساب انسياب الغدير المتفرق ٠

وكدت أياس من لقائك وأحسست بخيبة أمل شديدة حتى كان ذات يوم بصرت بك ، فكان الروح قد ردت الى ٠

كان ذلك بين الأمواج وقد أخذت تغطسين لاهية ٠٠ ووقفت هنيهة وأنا أبصر رأسك غاطسا فى الماء ، وقدميك معلقتين فى الهواء ٠٠ ولست أدرى أى شيطان دفع فى نفسى من الجراءة ما جعلنى أمد يدى الى قدميك المعلقتين المقلوبتين فأبدا فى زغزغتك ٠

وانقلبت واقفة على قدميك وأخرجت رأسك من الماء ونظرت الى فى شيء من الدهش ، ثم أقلت من شفتيك ضحكة مرحة ٠٠ وسألتنى

فى تحد عما اذا كنت أستطيع الشقبة كما تفعلين .  
وهكذا بدأ بيننا التعارف . . بطريقة بهلوانية صبيانية قد تبدو  
لى على جانب كبير من التفاهة ، ومع ذلك فقد اعتبرتها وقتذاك  
واقعة خطيرة وحادثا جلا . . بل لقد اعتبرتها نقطة التحول فى  
مجرى حياتى .

ومن ذلك اليوم ، تحول حبى السلبى الى حب ايجابى . . ولم  
أعد أكتفى منك بالنظرة العابرة والمراقبة . . بل بدأت أتلهم على  
صوتك والحديث معك ولم تبخل على بذلك بل منحنتى من أقبالك  
ما ألهب فى نفسى جذوة الأمل . . وأبدت لى من جمال نفسك وعذوبة  
روحك ما تضاءلت بجواره فتنة وجهك وسحر جسدك .

وحدث بيننا ذلك اللقاء العجيب الذى خلقت معك فيه الى نروة  
السعادة تحوطنا هالة من الامانى العذاب المشركات .

جلسنا نتحدث . . وسألتنى عن عملى فى الحياة فقلت لك اننى  
أشتغل بالأدب . . فتملكتك دهشة وسألتنى :

– أى نوع من أنواع الأدب ؟

– كتابة القصة .

– لقد قرأت لكثيرين من الكتاب . . نكرنى بشئ مما كتبت ، فقد

أكون قرأت لك شيئا .

ودهشت من قولك . . فقد كان يبدو لى أنك من نوع لا يهتم

بالأدب أو القراءة .

ونظرت الى وجهك ، والى شعرك المائج ، ثم أطرقت وقلت كأنما

أحدث نفسى :

– كتبت ذات مرة . . قصة شعر .

– قصة شعر ؟ . . انت الذى كتبتها ؟

ورفعت رأسى مأخوذا . . وسألتك متلهفا :

— نعم .. لقد أحضرتها الى صاحبة لى .. وقالت لى اقرئى هذه قصتك . وتناولت القصة وأخذت فى قراءتها ، ولشد ما أدهشنى أن ابصر فى القصة صورة طبق الأصل منى .. كأن كاتبها رسام يصور الواقع

كيف أصف وقع كلامك فى نفسى ؟ ، كيف أصف لك السعادة التى أفعمت قلبى وقتذاك ؟ .

من يتصور هذا .. أنت تقرئين لى ؟ وتقرئين القصة التى استوحيتها منك وكتبتها لك ؟ .. لقد كان هذا أكثر مما أرتجيه .. فما كنت أمل قط ، وأنا أكتب عنك ، أنك ستقرئين ما أكتب .

والتقينا بعد ذاك .. وكان معك اليوم ملهى بصورك وجلست تعرضين على الصور .. الواحدة بعد الأخرى . وتسألينى رأى فيها ، وأحسست وقتذاك وأنا أجلس بجوارك وأنقل البصر بين الصور وبينك ، أنك قد سريت فى دمى .. وأنه من العسير على أن أحيا بدونك .

واقترقنا بعد ذاك . فقد انتهى الصيف ولم تكن هناك فرصة لى أراك الا فى الصيف الذى يليه .. فما كنت أستطيع أن أراك فى غير الصيف .

وساءلت نفسى .. كيف أستطيع الصبر حتى الصيف التالى ؟ وقد تغلغت فى نفسى وسريت فى دمى .

أجل يا صاحبتى .. لقد أضحى من العسير على أن أحيا بدونك . ولكن من قال اننى سأعيش بدونك ؟ .. ماذا تستطيع الفرقة أن تنال منى .. أنا تاجر الأوهام وبائع الأحلام . ماذا يفعل بى بعد الشقة ونأى المزار ، وأنا الذى أستطيع بذهنى أن أقرب كل ما شط ، وأنال كل ما نأى .

ولقد عزمت على أن أعيش معك ، والا افترق عنك لحظة . ولم يكن

ذلك بالأمر العسير ، فإنا أعيش فى كل ما أكتب ، فلو كفت عن الكتابة  
الا عنك . لكفت عن العيش الا معك .

هل فهمت يا ساحرة ؟ لقد عزمت على أن أخلو اليك أنت دون  
سائر ملهاتى . واستقر بى الرأى على أن أمنحك وحدك : خلاصة  
الروح ، وعصارة الذهن .

وهكذا بدأت كتابى الأول . . كتابا طويلا ، غير تلك الأقاصيص  
التي تعودت نشرها ، لا لشيء الا لأعيش معك ، ولأخلو وإياك ،  
ولا ثالث لنا سوى قلم صامت مشحون ، وورقة خرساء بيضاء .  
وعكفت على كتابى ، أو كتابك ، وبى من الشوق واللهاة ما كان  
ينسينى كل ما حولى ، وقد تملكنى الحنين كأننى غريب مقبل على  
وطنه ، أو كأننى أم تتعهد رضيعها .

وأخذت أكتب وأكتب . . ومرت على ليالى الشتاء الطوال ، وأنا  
جالس الى مكتبى وحيدا ، فى غرفة بأعلى المنزل كاتى فوق هام  
السحب ، أستمد مما حولى قوة وجلدا . . من عصف الريح ، ونباح  
الكلاب ، وصياح الديكة .

كنت أبدو كفقراء الهنود . . انسان يعذب نفسه . . ومع ذلك ،  
فما أحسست بمتعة فى حياتى كما أحسستها فى هذا العذاب .  
أو ما كان يبدو لن حولى عذابا .  
كنت لا أفعل الا شيئين : التفكير والكتابة . . التفكير فيك ،  
والكتابة عنك .

وحل الصيف أخيرا ، وأنا ما زلت منهمكا فى الكتابة . . أو على  
الأصح ، منهمكا فى اللقاء . . أنا وأنت فى خلوتنا سويا . . أناجيك  
أجمل مناجاة ، وأصوغك كما أشتى .

ولم تسنح الظروف فى ذلك العام أن أذهب الى الاسكندرية  
وبالتالى لم تسنح لنا بلقاء ، ومع ذلك . . فما أحسست بشيء من

الضيق !! بل على النقيض ، لقد سررت ذلك ، فقد كانت بى رغبة شديدة فى ألا ألقاك الا بعد أن أكون قد انتهيت من الكتاب ، وبعد أن يكون قد تم طبعه ونشره وتوزيعه .

كنت أريد ألا نلتقى ، الا وقد قرأت الكتاب ، الذى أفنيت فيه نفسى . كنت أريد أن أسمع من شفقتك كيف تذوقت عصارة روحى . كنت أختزن الشوق ، وأكتب اللمحة ، قانعا بذلك اللقاء الوهمى على الصفحات المتناثرة أمامى . وكلما هفا القلب اليك علته بحلول الأمانى ، ومنيته بعذب الآمال . وكلما حن الفؤاد وشكا طول الفارقة ومرارة البعد ، صورت له كيف ستلقينى بعد قراءتك الكتاب .

ومضى الصيف وأنا ما زلت منطويا على نفسى فى صنومعتى كالناسك المتعبد ، ليس لى من متعة فى الحياة سوى الكتابة .

ولم يحل الشتاء الا وقد انتهيت من الكتابة ، وبدأت بعد ذلك مهمة الطبع ، وتصحيح البروفات ، وعمل الكليشيهات ، وغير ذلك من المشاق التى لم يكن منها بد . وكنت أحس أنى فى عجلة من أمرى ، فقد كانت بى رغبة جارفة فى أن أنهى الكتاب قبل أن يحل الصيف . وأخيرا فرغت من مهمتى . وانتهى الكتاب ، ووقفت فى المطبعة

أمسك أول نسخة ألقبها فى يدي واتحسس غلافها اللامع . أى احساس عجيب كان يملكنى ؟ كيف أصف لك مشاعرى وقتذاك ؟ لم يكن الكتاب بين يدي أوراقا مطبوعة بل كان شيئا حيا وكنت أكاد أسمع من بين أوراقه خفيف أنفاس . لقد كان الكتاب . . أنت . . وكان أنا !

وخرج الكتاب الى الأسواق ، وتناولته الأيدي . . وكنت فى لهفة لأن أسمع كلام الناس عنه ، وكيف يقع من نفوسهم . . كنت فى حالة توتر وانتظار ، كإنى طالب ينتظر نتيجة الامتحان . . ولم تكن رغبتى فى النجاح ، واهتمامى لأراء الناس نتيجة اهتمامى بهم أو اهتمامى



بنفسى ، أو حبا فى الظهور ، بل كنت أتعجل حكمك على الكتاب  
وأتمسك بين أقوالهم وأرائهم كيف سيقع الكتاب من نفسك ، وكيف  
يرونك فيه •

وملأنى حديث الناس عنه بالرضا ، واحسست من كل أقوالهم  
بالراحة والاطمئنان فى قرارة نفسى • ولن أحاول أن أبرئ نفسى من  
الغرور الذى يلزم كل كاتب ، أو أبرئ الناس من المداينة والتفاق ،  
ولكنى مع كل ذلك أستطيع أن أجزم لك بأن تعبى فى كتابته لم يذهب  
سدى •

وهكذا بدأت أتحرق شوقا للقائك •• وقد افعمت نفسى الثقة ••  
وانتابنى شعور الجندى الظافر ينتظر الجزاء والتقدير ، بعد أن قدم  
فى المعركة عصارة نفسه •

وكنت أجلس الساعات الطوال ، وقد أمسكت بالكتاب فى يدى ،  
وأنا أتخيلك ، وقد قرأت الاعلانات فى الصحف عن كتاب ظهر لى ،  
ثم ذهبت الى احدى المكتبات لشرائه • وعدت الى بيتك وخلوت به  
الى نفسك ، وبدأت تقرئينه • وكنت أتوقف أمام فضول الكتاب ،  
وأصور لنفسى كيف يقع كل منها فى نفسك ، وأتخيل مشاعرك  
واحاسيسك •• وأنت تبصرين نفسك فى الكتاب !

★ ★ ★

وجل الصيف ، وذهبت الى الاسكندرية ، ولم أفعل شيئا فى أول  
يوم سوى البحث عنك •

ولم أجدك ، لا فى أول يوم ولا فى الأيام التالية • احسست بخيبة  
أمل شديدة ، وتملكنى يأس جارف وضيق مستبد ، ولم أعد أطيع أن  
أحدث انسانا أو يحدثنى انسان •

ولم أجد بدا من السؤال عنك ، فاستجمعت شجاعتى وسالت

صاحبة لك. تعودت أن أراها دائما معك ، فانبأتنى أنك قد سافرت ،  
وأنها لا تعرف متى تعودين .

وبدأت أتصبر وأنتظر ، حتى كان ذات يوم قبيل الغسق ، وقد بدا  
الشاطيء يقفر من الناس ، وأخذت أسير على الرمال متباطئا أرقب  
الشمس تتهادى في نهاية الأفق ، عندما التفت ببصرى فجأة الى  
الناحية الأخرى . فوجدتك أنت . كأنك شمس تشرق لتعوضنى  
خيرا من الشمس الغاربة .

وتملكنى الارتباك ، وخفق قلبى بشدة ، فقد كانت مفاجأة شديدة  
الوقع . وما كان يخطر ببالى قط أن أراك فى تلك الساعة .

ومضت فترة قصيرة تغلبت فيها على حيرتى وارتباكى ، ثم  
اندفعت اليك مبتسما ، ومددت يدي فشددت بها على يدك .

وكننت أتوقع أن تحدثينى أول ما تحدثينى عن الكتاب ، ولكنك  
وقفت صامئة وقد بدت فى نظرتك علامات الدهش ولم تحدثينى عن  
الكتاب ولا عن غير الكتاب .

أحسست بشيء من الحرج . . . وبدأ لى أنه ليست لديك أية فكرة  
عن الكتاب . . . وقلت لنفسى من المحتمل ألا تكونى قد قرأت عنه أو  
سمعت به .

وقلت لك فى رفق : « ان لدى كتابا أود اهداءه لك » .  
وكننت اظن أن قولى خير اصلاح للموقف وخير علاج لما أحس به  
من حرج ، ولكنى وجدت دهشك يزداد ، ووجدتك تقطين جبينك  
وتهزين رأسك . وتقولين متسائلة :

— كتاب ؟ . . لى أنا ؟

— أجل . . كتاب لك . . وضعته أنا .

— انت . . ؟ من أنت ؟

وبلعت ريقى ، وأحسست بخذلان شديد ٠٠ وتملكنى الوجوم  
والارتباك ، ثم أخذت أتمتم بصوت خافت معتذرا :  
- أنا متأسف ٠٠ الظاهر أنه قد حدث عندى التباس ، لا تؤاخذينى -  
ثم أوليت ظهري وقررت هاربا .  
« من أنا ؟ » ٠٠ يا لهزه الحظ وسخرية القدر .  
أنا من جعل منك كل شيء ، وجعلت منه غير شيء ٠٠ أنا من  
محوته من ذاكرتك ٠٠ وأثبتك فى ذاكرة الزمن ٠٠ قاتل الله الوهم  
لقد أضعت فيه عمرى ، وأقنيت فيه زهرة نفسى .  
« من أنا ؟ » ٠٠ أنا الذى قدم عصارة روحه فأرقتها على قدميك  
وذريتها مع الرياح .  
يا للقراء الواهمين ؟ ٠٠ لو أدركوا حقيقة ما قدمت اليهم ،  
ولو عرفوا زيفه ، لانقلب أعجابهم سخرية ! .  
ما حيلتى معهم ؟ ٠٠ لو كنت مثالا لحطمت التمثال ! ليتنى  
استطيع أن أجمع الكتاب ٠٠ لأعمل منه كومة أشعل فيها النار ٠٠  
فلا يبقى منه الا رماد تذروه - كما ذرتنى - ربح النسيان .  
شيء واحد هو الذى يعزىنى عنك ، ويملا نفسى سلوانا ، هو أنك  
أنت ٠٠ لم تكونى أنت .  
أجل ٠٠ لم يكن وجهك هو ذلك الوجه البريء الذى تعودت أن  
أراه ، فقد لمحت به شفتين مرسومتين ولمحت به أصباغا واللوانا .  
أى والله يا صاحبتى ، انى ما عدوت جادة الصواب ، وأنا اعتنر  
لك وأقول : انه قد حدث عندى التباس .  
« من أنا ؟ » ٠٠ أنا يا اختاء ٠٠ من ضيع فى الأوهام عمره -



# رجل كريم

سیدی العزیز :

مضى عام على زواجى. أو ما يقرب من العام وأنا حائرة لا ادرى  
أين موضعى من زوجى ، وأين موقعى من السعادة والهناء ، ومن  
أحلام العذارى التى طالما تراءت لى وأنا فتاة لم يتعد تفكيرها دور  
الأمانى والأحلام .

لم أك أريد أن أعترف لنفسى بأن زواجى فاشل وأن زوجى لم يعد  
يحببنى كثيرا ، وأنى لم أعد أحتل من قلبه المكان الذى كنت أحتله عند  
بدء الزواج ، وكنت أكره أن أرى الزمن قد هزمنى وخيب آمالى ،  
وأى زمن ؟!! بضعة أشهر لم تتعد العام ، أى لحظة فى عمر الزمن ،  
ومع ذلك فقد استطاعت أن تهدم شواىخ قصورى ، وأن تبديد عذب  
أحلامى ، فخبث فى خلالها جذوة الحب المتقدة ، وانطفأت جمرته  
المتأججة ، فإذا أنا لا اشغل من تفكيره الا النزر اليسير ، وإذا أنا  
بالنسبة اليه شىء كمالى

ومع ذلك - وهو أسوأ ما فى الأمر - لم يكن أمامى الا الخضوع  
والاستسلام ، والا الرضا والسكوت ، فنحن لا نستطيع أن نحصل

على الحب اذا ما طالبنا به كحق لنا ، اذ الحب هبة ليس لنا ان نطالب بها اذا ما استردت منا . أجل اذا كان حب زوجى لى قد تطاير من نفسه وخفت وخبا . . . فماذا يمكننى ان أقول له ، وماذا فى طوقى ان افعل سوى الصبر والاحتمال ، وأن أحاول أن أعود نفسى الحياة بلا حب . وأن أقنعها أن الحب ليس سوى هشيم أحلام تذروه ريح اليقظة .

هل ترائى مبالغة فيما أطلب . . ؟ أنا أعرف أنه ليس للزوجة أن تطمع فى ذلك الحب المشتعل المتأجج ، الذى كانت تأمل فيه وهى فتاة حاملة ، وأعرف أنه ليس لى الحق فى أن أنتظر من زوجى أن يستمر على شغفه بى ، ولهفته على الى ما لا نهاية ، ولكننى مع ذلك كنت أحس فى نفسى أننى مهضومة الحق ، مهملة منسوبة . . ولم أكن أراى أطلب أكثر مما تطلبه أية امرأة مهملة عاقلة رزينة . فأننا لا أريد أكثر من حقى كزوجة ، أريد أن أشعر أن زوجى يحس وجودى ويعطينى بعض وقته وبعض اهتمامه .

انى لأنكره منذ عام ، وقد جلس أمامى قبيل الزواج بوجهه المتألق الذى يفيض بالبشر ، وابتسامته التى تشيع فى النفس السعادة والهناء ، وصوته العميق الذى ينفذ الى القلب فيخفق طربا . . لقد كنت أرى فيه رجل أحلامى ، الرجل الذى سيهب لى سعادة العمر ، ونعيم الحياة .

وتزوجنا ، ومرت الأيام ، فإذا بى أرى عمله يستغرق كل وقته ، وإذا بى أراه يعيش مهنته أكثر مما يعشقنى ، وإذا بى أراى نسيا . . منسيا .

لا تنهمنى بالسخف ، ولا تقل ان هذا هو ما يجب على كل رجل ، واننى يجب ان أشجعه على حب عمله . . وأن أكون عوناً له . . لا تقل هذا فأننا أعرفه . . وما كنت لأطلب منه قط ان يعمل عمله من

اجلى ٠٠ ولكنى أطلب الا يهملنى من أجل عمله ٠٠٠ وأن يساوى  
 بينى وبين مهنته ٠٠ ويشعرنى أن لى عليه بعض الحقوق ٠  
 انى لا اكاد أراه الا وقت النوم وعند وجبات الطعام وحتى هذه  
 لا نكاد نتناولها فى مواعيدها كبقية خلق الله ٠٠ فهو دائما ينسى ٠٠  
 ينسى أن يحضر الى البيت لتناول الطعام ، وأظال أنتظر وانتظر حتى  
 يدق التليفون ، ثم يخبرنى أنه آسف وأنه سيحضر بعد نصف ساعة ٠٠  
 وتمضى ساعة وساعتان ثم يحضر الى أخيرا منهوك القوى ٠٠ متعب  
 الأعصاب ٠

دعنى أعطيك صورة خاطفة ليوم من أيام حياته ٠ حتى ترى اذا  
 كنت متجنية عليه أو مخطئة ٠

انه يستيقظ فى الصباح ليحلق نقه ويغسل وجهه ويجلس لتناول  
 الشاي والافطار وعيناه مثبتتان فى جرائد الصباح ٠٠ دون أن ينبس  
 بكلمة ٠٠ ثم ينهض ليسأل : أين حقيته ٠٠ هل نسى منظاره ٠٠  
 ليس معه منديل ٠٠ أين طريوشه ٠٠ لقد كاد يخرج عارى الرأس ٠٠  
 ثم يهبط مسرعا ٠٠ ليتوقف على الدرج مرة أو مرات ٠٠ ويبحث  
 فى حقيته عن أشياء يخشى أن يكون نسيها ٠٠ ثم يهبط مرة أخرى  
 منطلقا الى كليته ٠

كان مدرسا فى كلية الطب ٠٠ ولست ادرى كيف كان يقضى  
 صباحه بالكلية ٠٠ ولكنى أعلم أنه شديد الاهتمام بطلبته  
 وبمحاضراته ٠٠ وينتهى من عمله فى الكلية قبيل الظهر ٠٠ فينطلق  
 الى عيادته التى تجمع فيها المرضى ٠٠ والتى علق عليها لافتة كتب  
 فيها مواعيد العيادة : من الساعة الثانية عشرة الى الثانية مساء ،  
 ومن الخامسة الى الثامنة مساء ٠٠ ورغم ذلك فما انتهى قط من  
 عيادته فى الثانية أو الثامنة ٠٠ بل لا اكذبك القول اذا ما قلت لك

انه كثيرا ما يصل عيادة الصباح بعيادة المساء ٠٠ وانه كثيرا ما ينتهى من عيادة المساء فى منتصف الليل ٠

وهكذا لا يكون نصيبى منه فى اليوم الا لحظات خاطفة أقضيها مع ذهن شارد ٠٠ وجسد منهوك ٠٠ وبالطبع كان يجب على أن أقدر أن هذا ما يجب أن تتوقعه زوجة رجل يعتبر من أمهر الأطباء ٠٠ ولكنى مع ذلك كنت أراها ضريبة فادحة أبذلها من حياتى ومن شبابى ٠ وفى ذات يوم استيقظت ٠٠ وبنفسى شعور الفرح والنشاط ٠٠ لقد كان يوم عيد ميلادى ٠٠ أول يوم عيد ميلاد يمر بى وأنا زوجة وكنت أتمنى الا يكون زوجى ناسيا ٠٠ وأن يقبل على فيهنثنى ويرجو لى عمرا مديدا ٠ وكنت أتلطف على أن يهدينى أى شئ مهما كان ثاقفا ٠٠ ليشعرنى بأنه ما زال يحس بوجودى ويهتم بى ٠٠ ولقد حاولت منذ أسبوع أن أنكره فقلت له ان يوم عيد ميلادى هو يوم الثلاثاء المقبل ٠٠ ثم قلت بعد هنيهة اننى قد رأيت بمحل الجواهرات تحت عيادته دبوسا على شكل ببغاء لا يزيد ثمنه على خمسة جنيهات ٠٠ وانه قد أعجبنى كثيرا ٠٠ ولم أقل أكثر من هذا ٠٠ بل تركت البقية لتقديره ٠٠ وقلت لنفسى هذه الاشارة لا شك كافية لأن يفهم ٠ ومع ذلك فقد استيقظ كعادته ، وانطلق الى الكلية دون أن يشير الى بكلمة واحدة تدلنى على أنه لم ينس ٠

وروقت فى النافذة أشيعة وهو ينطلق فى طريقه ، وبنفسى حسرة وبقلى لوعة ٠٠ حتى اختفى عن بصرى ، فارتيمت على احدى الأرائك أمسح بيدي دمعة ترقرت فى عيني ٠

أى حمقاء أنا ؟ ٠٠ لم لا أحاول أن أكون امرأة هادئة رزينة ٠٠ بدلا من التعلق بأهداب الحب وبأساليب المظاهر الرومانتيكية ! ٠ ما يضيرنى اذا لم يذكرنى اليوم ؟ وهو الذى لم يذكرنى منذ ثلاثمائة يوم ٠٠ ثم من يدري لعل الله يدفعنى الى ذاكرته اليوم ، فيمر على



محل المجوهرات فيبتاع لى الحلية التى طلبتها ؟ وما ذلك على الله  
ببعيد •

وأنعشنى هذا الأمل ، ووجدتنى أدعو الله كأتى طفلة صغيرة ، أن  
يذكر زوجى أن اليوم عيد ميلادى •• وأن يجعله يبتاع لى الحلية  
التى أريدها •

ولا تسخر منى يا سيدى ، فالانسان لا يعدو أن يكون طفلا فى كل  
دور من أدوار حياته ، وكنت أكره أن أبدو - حتى فى نظر نفسى -  
امراة منسية أو إنسانة مهجورة ، والى من غير الله نلجا اذا ما مس  
نفوسنا ضر أو أصاب قلوبنا سوء ؟ •

أجل •• انه لن ينسى •• انه لا بد أن يتذكر ••

وهكذا ملأت نفسى بالأمل •• ونهضت لأقوم بترتيب البيت وتجهيز  
الغداء •• وأحاول أن أنعش نفسى بالتماس الأعداء لزوجى على  
سابق أهمله ، وإن أنكر نفسى بحسناته وأن أقنعها بأوجه الحسن  
فيه ، وبأنه خير من كثير غيره من الأزواج •

أجل •• انه لم يكن سيئا بحال من الأحوال ، انى ما زلت أنكر  
له يوم أن كانت أمى مريضة •• وساءت حالها •• كيف ترك عمله  
وعيادته ليقضى بجوارى وجوارها الليل والنهار ، وكيف كان يأخذنى  
بين ذراعيه عندما يعصف بنفسى اليأس كأتنى طفلة صغيرة ، ويحنو  
على ويغمر رأسى ووجهى بالقبلات ، وأنكر فزعه اذا ما أصابنى  
سوء أو ألم بى مكروه •• لقد كان رجلا كريما يحمل عنى عبء  
أحزائى ، وكان لى دائما عونا فى الملمات •

ولم أكن أنا فقط التى يحمل عبء أحزانها ، فقد كانت تلك طبيعة  
فى نفسه وكنت أعرف أنه لا يتقاضى أجرا من نصف مرضاه ، وأنه  
كثيرا ما يكلف نفسه مشقة الذهاب الى دورهم ، وهو يعلم أنهم فقراء  
لا يملكون أجره ، بل كثيرا ما يعطيهم ثمن الدواء ، أفلا يعزبنى هذا

عن اهماله لى ؛ أفلست مخطئة عند ما اتالم لأنه يتأخر فى بعض  
الأحيان الى منتصف الليل

ولكنى انسانة يا سيدى والانسان تسرى فيه الأتانية مسرى  
الدماء .. كم كنت أود أن يعطينى من نفسه . أكثر - ولو قليلا - مما  
يعطيه الناس !

ومرت بى الساعات سريعا ، وأنا منهمكة بجسدى فى أداء  
واجباتى اليومية .. شاردة بذهنى فى تلك الأفكار التى كانت تعصف  
برأسى .. وأنا أدعو الله بين آونة وأخرى أن يدفع بى الى ذاكرته ..  
فيجعله لا ينسى أن اليوم عيد ميلادى .

ودقت الساعة الثانية ، فأسرعت بتجهيز المائدة .. وجلست  
أنتظر .. ثم سمعتها تدق الثانية والنصف .. ثم جاوزت الثالثة ..  
وهو لم يأت بعد !!

وأحسست بانقباض فى نفسى .. وسرى الحزن بين جوانحى ..  
لا شك أنه قد نسى !! فقد كان عليه أن يأتى على الأقل فى موعده  
لو كان يذكر .

ودق التليفون .. ووصل الى صوته يعتذر فى عجلة ويقول انه  
سيأتى بعد خمس دقائق .. وفى الساعة الرابعة والنصف سمعت  
وقع قدميه وهو يصعد الدرج .

وتعلمكنى ضيق شديد .. وتمنيت لو استطعت أن أبكى بصوت  
عال .. أبيضل على بيوم واحد طيلة العام .. يابى أن ينكرتنى فيه !؟  
ولكنى تماكنت نفسى ، وفتحت له الباب وقد كسوت وجهى بشاشة  
مصطنعة .. حتى لا أزيده هما فوق ما يحمله من هموم عمله .  
وانتظرت أن يستلقى على اقرب مقعد ليستريح برهة .. كما تعود  
أن يفعل دائما .. ولكنه لم يفعل بل ألقى حقيبته جانبا وأمسك بى بين  
شراعيه .. وقد علت وجهه الابتسامة التى كانت تضىء نفسى وتبدد

ظلمات قلبي .. وطبع على شفتي قبلة كنت أحس بالظلم اليها ..  
وقال لي في صوت حنون :

– كل سنة وانت طيبة ..

وهمست في أذنه وأنا أغلب دمعة فرح .. كانت تحاول أن تقلت  
من عيني :

– وأنت طيب ..

أية هزة أصابتني بها تلك الكلمات الأربع ؟ وأي تأثير كان لها في  
نفسى وقتذاك ؟ .. أن الانسان ليتحول أحيانا الى جملة مشاعر  
واحساسات فيكون للكلمات في نفسه فعل السحر ..

قلت له بصوت متدفق بالحمد والشكر :

– انك لم تنس ..

– أنسى ؟ .. كيف أنسى ! ان لدى هدية ثمينة لك ..

– الدبوس ؟

– لا .. هل تذكرين تلك القلادة التي أبديت اعجابك بها ؟

ولم أتمالك أن صحت في عجب :

– ولكنها غالية جدا ! .. فان ثمنها يزيد على مائة جنيه

– أعلم ذلك .. استطعت أن أقتصد ثمنها منذ بضعة أسابيع ..

وانتظرت أن يخرج القلادة من جيبه وأن يضعها في عنقي ولكنه  
لم يفعل ؛ وعلمت أنه نوع من السهو الذي هو مصاب به ، وسألته  
في رقة لأنكره :

– أين القلادة ؟

ونظر الى برهة وأجاب وهو يهز رأسه في شيء من الأسى والأسف :

– بودى لو استطعت احضارها .. لقد كنت أنوى شراءها

اليوم .. وقلت للرجل ليعدها لي .. ولكن الظروف لم تتح لي فرصة

اسعادك بها ٠٠ ومع ذلك فاني أعرف انك ستلتزمين لى العذر ٠٠  
وستعتبرين كأنها قد وصلتك ٠

وادمشنى منه هذا القول وسألته التوضيح ٠٠ فبدأ يقصر قائلا :  
— منذ بضعة أيام ٠٠ شعرت بغياب أحد طلبتى عن حضور  
المحاضرات ٠٠ وما كنت لأحس غيابه لو لم يكن من نوع ممتاز ٠٠  
نوع يطالعك نكاؤه ونبوغه ٠٠ كأنه شعاع يضىء ، وسألت عنه  
فعلمت أنه قد فصل لعجزه عن سداد المصروفات ٠٠ فصل ! انها  
جريمة ٠٠ أى والله جريمة أن يحرم مثل هذا الفتى الذكى أن يتم  
تعليمه ٠ ويقضى على مستقبله ٠٠ ويحرم البلد الانتفاع به ٠٠ لا لمشيء  
الا لأنه لا يملك بضعة جنينيات يسدد بها أجر تعليمه ٠٠ وفى الوقت  
الذى تنكس فيه الأموال فى خزائن اللثام والسفهاء ٠٠ هذا والله  
لا يقبله عقل اللهم الا عقل تلك العصابة من اللصوص الذين بأيديهم  
أموال البلد وبأيديهم أمره ٠

وخرجت من المحاضرات فصادفت الفتى فى قناء الكلية ، وأقبل  
على يحيىنى ٠٠ فذهبت به الى مسجل الكلية وطلبت منه أن يعيد  
الفتى لأننى سأسدد بقية مصروفاته ؛ ولكن الفتى هز رأسه قائلا :  
« لا فائدة » ، واستفسرته فى حيرة عما يقصده « بلا فائدة » ،  
فأجابنى بأنه هو الذى يبغى ترك الكلية ، اذ يتحتم عليه أن يجد له  
عملا حتى يعول أسرته بعد أن شل أبوه ٠ وأصابتنى الحسرة  
والحزن ، ولكنى أصررت أن يبقى الفتى فى الكلية ٠٠ اذ ليس أمامه  
سوى عام واحد نستطيع أن ندبر أمره بأية وسيلة ٠

وذهبت مع الفتى الى بيته وجلست مع أبيه برهة ثم غادرت  
الدار ٠٠ بعد أن تركت بقية المائة جنيه ٠

هل عرفت لم لم أحضر القلادة ؟ ! هل يمكن أن تقبلى ما فعلته على  
أنه هدية عيد ميلادك ؟

ودفنت وجهي في صدره ، وهمست وقد غلبني التأثر :  
— هذه خير هدية قدمت لي ٠٠ منذ ولدت ٠

★ ★ ★

سيدتي العزيزة :  
إذا كنت ترين عمل زوجك خير هدية قدمت لك منذ ولدت ٠٠ فاني  
أرى قصتك خير هدية قدمت لي منذ بدأت الكتابة ٠  
فهل تسمحين لي أن أهديها بدوري الى أولئك الذين وصفتهم في  
قصتك بالللثام والسفهاء ٠ أولئك الذين تكسست في خزانهم  
الأموال ؟  
هل تسمحين لي بأن أنكرهم بأن ملذات الحياة محدودة وأن  
أموالهم مهما كثرت فلن ينالوا من متع الحياة أكثر مما نالوا ؟ وبأن  
أنكرهم بأن ثروتهم لن تحمل معهم الى قبورهم وأنها لن تنفعهم في  
الحياة الأخرى ٠  
أجل يا سيدتي ٠٠ دعيني أنكرهم فما أملك غير التذكرة :  
« فذكر انما أنت مذكر ٠ لست عليهم بمسيطر »



# رجل...

غزة في ١٩ مايو سنة ١٩٤٨

سيدى العزيز :

أكتب اليك رسالتى الأولى من الميدان .. ميدان القتال ..

كم أحس لهاتين الكلمتين عذوبة فى فمى .. كم لهما من نشوة فى  
نفسى وحلاوة فى أنفى ..

كم أشعر وأنا فى الميدان بأن اعتبارى قد رد الى وأن هامتى قد  
علاها الغار الذى لم يعلها من قبل . وأن أنفى قد بات يطاول نجوم  
السماء ..

كم أحس وأنا فى الميدان بأنى قد وضعت حيث يجب أن أكون ،  
وأنى قد فككت بعد طول أسر ، وانطلقت بعد طول تكبيل ..

ان بنا للهفة على القتال ، وحنينا الى خوض المعارك .. بنا شوق  
الى الصعود فى القمم ، بعد أن طال بنا الرقود فى الوهاد .. بنا  
شوق الى أن تكون لنا معاركنا بعد أن طال بنا الفخر بمعارك  
الأجداد .. بنا شوق الى أن نسمع مدافعنا تدوى وطائراتنا تنز  
أكتب اليك من الميدان ، وأنا ملئ النفس بالثقة والايمان ..

أليس من فضل الله علينا أن تكون أول معارك نخوض غمارها ٠٠  
هى معارك هجوم ؟ ! هجوم شريف ٠٠ لا اعتداء أثم ٠٠ هجوم حتمته  
الشهامة وغوث الجار ، ورد عدوان الأنجاس المناكيد ٠  
أقسم لك يا سيدى أنى ما أحسست قط بالسعادة التى أحس بها  
الآن ٠٠ وأقسم لك أنى ما شعرت بحب مصر كما شعرت به الآن ٠٠  
لقد التف بى جنودى ، وكأنا كلنا نفس واحدة ٠٠ نريد أن ننطلق ٠٠  
لنبيد الأتذال ٠٠ وتلقى عليهم درسا قاسيا ، لا يعودون بعده الى بقر  
بطون الحبالى وذبح الولدان وسبى النساء ٠  
نريد أن نتقدم ٠٠ لنرفع رؤوسنا بين مواطنينا ، ونرفع رؤوس  
مواطنينا بين أهل العرب ، ونرفع رؤوس العرب بين العالم قاطبة !  
نريد أن نرفع رؤوسنا بين مواطنينا ٠ الذين طال بهم الاستخفاف  
بنا وعدم التقدير لنا ، مواطنينا الذين حسدونا على رتبة أو علاوة ،  
والذين تساءلوا ما قائدتنا وماذا نفعل ، والذين طالما بخلوا على  
الجيش بالأموال ، وقالوا انها أموال تذهب سدى ، وان الأمة لا حاجة  
لها بالجيش ٠٠ مواطنينا الذى اقترح بعضهم فى مجلس النواب أن  
يعمل الجيش فى ردم البرك ، والذين لم يحاولوا قط أن يفهموا أن  
الأمم تقوم على جيوشها ٠٠ وأنا فى زمن ، التفاهم فيه بالسلح  
لا باللسان ٠٠ نريد أن نرفع رؤوسنا بين هؤلاء المواطنين ، وأن نريهم  
أن لنا فائدة ٠٠ وأنا اذا أزعجت الأزفة نستطيع أن نفعل شيئا ٠٠ بل  
كل شيء ٠٠ وأنا كرماء ٠٠ لا بأموالنا ٠٠ بل بأرواحنا ٠  
نريد أن نرفع رؤوس مواطنينا بين العرب ٠٠ نريد أن تثبت أن  
مصر جديرة بزعامتهم ٠٠ ومن سوانا يستطيع أن يؤكد ذلك ؟ نريد  
أن تثبت للعرب أننا مخلصون فى الحفاظ على الود ، أشداء فى قراع  
الخطوب ٠٠ نريد أن نريهم أن هذا الشبل الذى يدافع عن فلسطين  
من تلك الأسد الذى اجتاحتها فى زمن مضى ٠٠ نريد أن نريهم أننا



إذا وعدنا أنجزنا ٠٠ وإذا قلنا فعلنا ٠٠ وأتينا أمة طحن لا أمة  
جمعجة ٠

نريد أن نرفع رؤوس العرب بين أهل العالم قاطبة ٠٠ نريد أن  
نعيد سوددا وثد وعزا باد ٠٠ نريد أن نرى الغرب سطوة الشرق ٠٠  
نريد أن نقول « كلنا في المجد شرق » بعد أن طال بنا القول « كلنا في  
الهم شرق » ٠

لم لا تملأ السعادة جوانحننا ، ويشع الأمل من نفوسنا ونحن نعلم  
أن كل ذلك نستطيع أن نفعله ٠

أكتب اليك من عربة اللاسلكي ٠٠ وقد جلست أستريح عقب يوم  
شاق قضيناه في الاستعداد لمعركة الغد ٠٠ أتى أبصر من نافذة العربة  
مغرب الشمس ، وقد أخذت تتهادى في الأفق ، وأرى أمامي الطريق  
المعتد الى مصر ، والذي سلكته قواتنا الظافرة في قدومها الى غزة ٠  
وعلى يميني قامت غزة ، بدورها البيض ، وعلى قيد خطوات مني  
يمتد الطريق الذي ينحدر من أعلى الربوة العالية القائمة في مدخل  
المدينة ، والذي شق المدينة الى البحر ٠٠ وفي أسفل الربوة امتدت  
أمامي المزارع الخضر ٠٠ أو « البيار » كما يطلق عليها المواطنون ،  
وامتدت فيها الكروم وتناثرت أشجار الفاكهة وتوسطتها الآبار  
الارتوازية ٠

هذه غزة يا سيدي ٠٠ بمزارعها وأسوارها ٠٠ أسوار التين  
الشوكي التي طالما درسناها في التاريخ العسكري ، والتي علمونا  
من معاركها الثلاث دروسا مستفادة ، قالوا لنا ان فيها تجارب  
وعظات قد تنفعنا في مستقبل الزمن ٠

لقد كنا نحن هذه المرة لا الانجليز ولا « اللبني » ٠٠ لقد كان  
جنودنا السمر لا جنودهم الحمر ٠٠ لقد كنا مصريين لا أترাকা ولا

استراتيجيين ٠٠ لقد كنا نحن هذه المرة الذين سنخلف التجارب ونعطى العظات ٠

سقطت الشمس ، وخلفت حواشيها الحمر وآثارها الدامية ٠٠ وهجم الليل فيدد الحواشي ومحا الآثار ٠٠ وعمقتنا الظلمة وسادنا السكون ، الا من أصوات الجنود وهو يحتسون الشاي ، أو أصوات اشارات تصدر إلينا خلال جهاز اللاسلكي من الرئاسة بين أونة وأخرى ٠

ان علينا أن نتقدم في الغد الى دير سنيد : احدى مستعمرات الصهيونيين المحصنة المحاطة بالألغام والأسلاك والملاي بالدشم المسلحة ٠٠ هذه المستعمرة هي احدى أوكر العدو التي تقف عقبة في طريقنا الى عاصمته ٠٠ ولا بد لنا من ازالة هذه العقبة قبل التقدم النهائي ٠

وصلتني الآن رسالة لأذهب للرئاسة لتلقى الأوامر النهائية لهجوم الغد ٠ سأتم لك الخطاب في فرصة أخرى ٠

★ ★ ★

٢٠ مايو

استيقظنا في الفجر ، وبنا من الأمل والثقة والفرحة ما بنفس طفل استيقظ في فجر عيد ، ولم يستغرق منا الاستعداد للتحرك سوى ثوان معدودات ، فقد كان كل شيء على تمام الأهبة ٠ بدأنا التحرك بعريقتنا المدرعة ، فقد كان علينا القيام باستكشاف سريع لمواقع العدو قبل أن تبدأ مدفعيتنا بذك حصونه وتمزيق أسلاكه وتمهيد الطريق لنا قبل اقتحام المشاة النهائي ٠ اني ألمح الشاويش يكرى ، وقد أطل بوجهه من عريقته متهلل الوجه . باسم الثغر . كأنه غير مقبل على قتال ، بل كأنه يتنزّه على كوبرى ينها في تصريح ٧٢ ساعة ٠

سرنا برهة على الطريق ، ثم بدأنا نتركه متفرقين يمنة ويسرة  
عندما لاحظنا ديرا سنيدي في الأفق رمادية شاحبة كان عليها قتره هم  
وغيرة كمد .

تحركت الجماعات متجهة الى الأغراض المعطاة لها ، تجس نبض  
العدو وتحصل على المعلومات المطلوبة منها . وتحركت مع مركز  
رياستى وأنا. أرقب العربيات تتفرق وتتباعد .

وصلت الى أذننى أصوات طلقات من ناحية العدو ، طلقات طائشة  
يحاول أن يوقع الذعر فى نفوسنا ويبعدنا عن مواقعه ، ولكن العربيات  
استمرت فى تقدمها غير أبهة ، تاركة طلقاته تذهب مع الريح .

وانتهينا من عملية الاستكشاف ، وقامت العربيات بدورة واسعة  
أعادتنا الى مواقعنا التى اتخذتها مدفعيتنا لاصلاء العدو بنيرانها  
الحامية .

واتجهت الى القائد فأسررت اليه بما استطعت أن أجمعه من  
معلومات أخيرة عن العدو وعن مقاومته ومواقعه .

كانت الساعة الثامنة والنصف وما زال أمامنا نصف ساعة قبل  
أن تبدأ المدفعية الضرب ، فأتجهت بعربياتى المدرعة الى موقع خلفى  
للتجمع ، وجلسنا نرقب رجال المدفعية حتى تبدأ ساعة الصفر .

انى أبصر أمامى أحد زملائى من ضباط المدفعية ، وهو « على  
عبد الفتاح » ، ولا أظنك تجهله فقد عرفتك به ذات مرة فى جروبي .  
ذلك الضابط المرح المهادر الذى لا يكف لحظة عن الضحك ، انه ما زال  
كما هو ، لا يكف قط عن الضحك . ان النفوس مرهقة ، والأعين  
حائرة بين المدافع والعدو ، وعقرب الساعة ، أما هو فقد انطلق  
صوته يسأل من حوله :

— هل سمعتم آخر نكتة عن اليهود ( ثم يبدأ فى سردها ) : « كان

فيه واحد يهودى ٠٠ ، وينتهى من سردها فتنبسط الوجوه وتفرج الشفاه ٠٠ وتتطلق القهقهات ٠٠ من الصدور .  
وأخيرا يسود الصمت ، حتى ليكاد المرء يسمع تردد أنفاسه ، ويستمر السكون - سكون ما قبل العاصفة - لحظة ٠٠ ثم تهب العاصفة .

حيا الله رجال المدفعية ، فهم رجال نمونجيون .  
أى والله يا سيدى لقد كان كل عملهم نمونجيا لكانى بهم فى صف الصباح عندما كنا نمر عليهم بخيولنا فى منشية البكرى أمثلة للنشاط والقوة المتدفقة وخفة الحركة لا تكاد تميزهم من فرط سرعة حركاتهم ٠٠ حتى لكان القنابل وقد تناقلتها الأيدي تقفز وحدها الى ماسورة المدفع ٠٠ حركة دائية بلا همسة ولا كلمة .

والاصابات يا سيدى اصابات رائعة ٠٠ هل تصدق أن أول قذيفة اطلقت أصابت احدى الدشم اصابة مباشرة ؟ كان كل الضرب فى الصميم ، فما طاشت ضربة واحدة .

استمر الضرب ، والرجال السمر فى مكانهم كالأوتاد ، ما أصابهم كل ولا ملل ، ولا طرا عليهم أقل تغيير ، اللهم الا تلك الطبقة اللامعة من العرق التى كست وجوههم وأجسامهم ، وتكشيرة قاسية قد سرت فى ملامحهم فأبدتهم كباغى الحمم وتجار السعير !!

استمر الضرب مبرحا متواصلا ، لا هواده فيه ولا رفق ولا سكون ولا هدوء . لا تسمع الأذان سوى الدوى ولا تبصر العين سوى الدخان المتصاعد ، ولا تشم الأنوف سوى رائحة البارود المزوجة بالأتربة ، وبين آونة وأخرى نسمع أزيز طائراتنا تتجه الى العدو تهديه بعض قذائفها .

استمر الضرب خمس ساعات متواصلة والعدو يصلى نيران المدفعية والطائرات . وفى منتصف الساعة الثانية والنصف ، بدت

عليه بواذر اليأس ، واخذت البيارق البيض تتصاعد من مواقعه  
الواحد تلو الآخر ، تعلن التسليم •

لقد أخرج العدو بيارقه البيض ، ولم يكن لدينا كبير ثقة في  
شرفه ، فإنّ الذي بقر بطون الحبالى وذبح الاولاد ، لا يكثر عليه أن  
يرتكب أمثال تلك الخدع القذرة ، فيلوح بالتسليم حتى نكف عن  
الضرب ونتقدم منه ، فبيداً هو في ضربنا كأي نذل مخادع جبان •  
أجل يا سيدي كنا نعلم أن هذا التسليم من جانبه قد يكون خدعة  
قذرة ، ومع ذلك فلم نكن نملك سوى أن نكون شرفاء ، وأن نكف عن  
ضرب العدو لوح لنا برايته البيضاء ، وأعلن اليأس والتسليم •

وهكذا - كأي رجال شرفاء - أوقفنا الضرب ، وتقدم الى العدو  
بعض ضباطنا في عربة من عربات الجيب ، ولكنهم لم يكادوا يقتربون  
من مواقعه ويصلون الى مرمى نيرانه حتى رأينا الراية البيضاء  
تنزل ونيران الجبناء تتقاذف ، فاستدارت العربة عائدة بسرعة الى  
خطوطنا •

أي والله هذا هو ما حدث ، وماذا ينتظر أن يفعل الأنذال سوى  
ذلك ؟ ان من الخطأ أن تكون شرفاء مع الذين لا يفهمون معنى الشرف  
• الذين لم يكونوا في حياتهم قط شرفاء • الذين يبيعون شرفهم  
بدراهم معدودة !

وهبت الزوبعة ثانية ، أشد عصفاً مما كانت ، زوبعة عاتية لا تبقى  
ولا تتر ، وعاد أسود المدفعية الى قذف حممهم ، أسودا غاضبة ثائرة  
تود لو تركت مدافعها وتقدمت الى الأنذال المخادعين لتمزقهم اربا •  
استمر الضرب حتى الخامسة ، وهنا حل دورنا إذ كان علينا أن  
نتسلم العمل من الرجال الكواسر فنقوم بالهجوم مع المشاة ، ونقتحم  
مواقع العدو ، ونطهرها منه ••• ونحتلها برجالنا •  
وبدأت الموجة الأولى من عرباتنا المدرعة تفتح للتقدم يسترها

وابل من نيران المدفعية تمر من فوقها ، فتهدب على حصون العدو لتدكها دكا . ويتقدم من ورائها جنود المشاة ، ثابتى الخطى ، شديدى البأس ، قد نفرت عروقهم وبرزت عضلاتهم وهم يقبضون بشدة على بنادقهم وتجهمت وجوههم. وكشروا عن أنيابهم ، واختلط تراب المعركة بحرقهم المتصيب فزادت وجوههم سمرة فوق سمرة ، وبدأ كأن فى عيونهم بعض تلك الحمم التى تخرج من أفواه المدافع .

وهكذا أخذنا نقتررب من مواقع العدو ، الموجة تلو الموجة ، لا خلل فى التوقيت ، ولا نقص فى الخطط ، كل شيء نمونجى كامل .

وكننت اتقدم بعيرتى فى منتصف احدى الموجات ، وقد تملكتنى النشوة ، وقاض بى الحماس . ان نيران العدو قد تستطيع أن تسقط منا بعض الأجساد ، ولكنها لن تستطيع أن توقف ذلك الايمان المتدفق والحماسة البالغة ، لقد عزمنا على أن نبيدهم ، ولا يد لنا من ذلك ، ولن يقف فى سبيلنا حائل .

وكفت المدفعية عن الضرب ، فلقد أصبحنا فى منطقة النيران ، وأصبحنا نواجه العدو وجها لوجه ، مصويين اليه فوهات مدافعنا المركبة على العربات .

وزاد لهيب المعركة . وانطلقت مدافع العدو الرشاشة المستورة فى الدشم لتوزع علينا وابلا من طلقاتها تحاول ايقافنا عبثا .

-ووصلنا أخيرا . وقد تعالى زفير مشاتنا على دوى المدافع ، وبدا العدو ينهار ويلفظ آخر انقاسه ، ولم يعد يسمع من مواقعه الا طلقات متباعدة متناثرة كأنها حشرة الموت :

ورفعت البيارق البيض مرة أخرى ، لم تكن خدعة هذه المرة ، فما عاد فى الأنذار رمق يعينهم على الخداع ، وأخذت اقتررب بعيرتى رويدا رويدا ، عندما سمعت صوت طلقة تاتى من بعد . ثم سمعت

فحيا يمر بى كأنه فحيح الأفاعى ، وأحسست بطريقة بسيطة فى  
صدرى •

ومددت يدى أتسسس صدرى والعربة سائرة •• والقوات تتقدم  
من حولنا • فأحسست بلزوجة ساخنة ، ورفعت أصبعى الى ناظرى  
قلمحت آثار دماء •  
لقد أصبت

ان الإصابة لا شك بسيطة •• لم تحدث بى اى تأثير •• فانا كما  
أنا ، ما انتابنى ضعف ولا خور •• انى قوى كما أنا أقف على قدمى  
وأصلب جسدى ، وانى أستطيع أن أقود سريتى حتى النهاية ،  
ولقد أضحت النهاية قاب قوسين أو أدنى •  
حلت النهاية بنصر حاسم لنا •• وأخذ العدو يستسلم زرافات  
ووجدانا •• وقواتنا تطهر مخابئه ومواقعه ، كما تطهر الشقوق مما  
بها من الحشرات والأفاعى •

★ ★ ★

انى أرقد الآن على الفراش ، فقد نقلونى من العربة بعد أن  
أحسست بضيق شديد ، وحملونى من أرض المعركة ، ولكن ليس قبل  
أن أجنى ثمار النصر ، وأرى بعينى علمنا الأخضر يرفرف فوق حصون  
الصهيونيين •

لقد أصبت بجرح فى الكتف ، لا أظنه على شئ من الخطورة .  
وان كنت أكره منه أن يرقدنى هكذا طريح الفراش •• أجل انى أكره  
أن أكون جريحا ••

قل لأصحابنا اننى سعيد •• سعيد بكل شئ •• وسعيد مهما  
حدث لى ، ولو مت ، فأننى أموت سعيدا قرير النفس •  
قل لصاحبتى تنتظر ولا تجزن لغيبتى •• بل تضحك وتبتسم ،

فقدنا سأعود اليها شخصا آخر قد كلل الفخار هامته ورفع النصر  
رأسه ٠٠ قل لها اننى سأعود اليها ويملا نفسى الفرح ٠٠ لأنه سيكون  
لدى ما أستطيع أن أقصه على اولادنا عندما ننجب اولادا ٠٠ سيكون  
لدى ما يملأ نفوسهم فخرا بأبيهم وبأوطانهم ٠٠ سأقص عليهم كل  
ما فعلت ٠٠ ما فعلت أنا لا ما فعله الفراعنة ٠ سأدرس لهم المعارك  
التي خضتها لا المعارك التي خاضها الانجليز ٠ سأدرس لهم دير سنيد  
بدل العلمين وواترلو ٠

قل لمصر تقرر عينا ٠٠ لأنها لن تهون ٠٠ لن تهون وفي صدورنا  
قلب يخفق وعرق ينبض ٠٠ قل لمصر تطمئن فليس فى الكون ما يذل  
أنفها ، ما دام لها من بنيتها درع يصد عنها الخطوب ويرد البلايا ٠  
قل لمصر انها لن تضام ٠٠ ان فى أجسادنا ارواحا تتوق الى  
التضحية وتتلطف على الفداء ٠

قل لمصر اننا لا نخشى الموت ٠٠ فكل فرد الى الفناء مصيره ٠٠  
ان الفرد فان ٠٠ أما الأمم فباقية خالدة ٠٠ ما أعذب الموت الذى  
يتيح لنا أن نكتب لها سطورا فى صفحات الخلود ٠

قل لمصر اننا نحمد الله ٠٠ لأن الله هيا لنا من الموت فرصة نرد  
لها فيها بعض الجميل ٠٠ ونرفع رأسها بين الأمم ٠٠ لقد ميزنا عن  
غيرنا ممن لم يعطوا فرصة الموت فى سبيلها ٠

" قل لمصر انها لن تموت ٠٠ ان ارواحنا فى أكفنا ٠٠ واننا كرماء  
٠٠ سنجد بها لكى تحيا ٠٠ ونذهب نحن لها فداء ٠  
والسلام عليكم ورحمة الله ٠

المخلص ( ٠٠٠٠ )

★ ★ ★

ولقد كان الفتى الأمجد صادقا فى قوله ، كريما فى فعله ٠٠ اذ



جاء بروحه قبل أن تصلني رسالته .. لقد كان جرحه قاتلا فمات  
لتحيا مصر .. كيف أبلغ رسالته لصاحبه ؟ ! وماذا أقول لمصر ؟  
أما صاحبه فاسأل الله أن يعينها على فقده وأن يهب لها من لدنه  
رحمة ويهيئ لها من أمرها رشدا .  
أما مصر فلقد بلغتها ما قال .  
انني ألح في عينيها دمة تترقرق .. لست أدري ، أدمعة حزن ،  
أم دمة فرح .. وأسمع همسات ترسلها اليه مع الريح : « شكرا » .

دار مصر للطباعة  
سميد جوده السحر وشركاه

رقم الايداع ٧٤٢١ / ٨٦



مكتبة مصر  
٣ شارع كامل صدقي - البحالة



الثلث ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة  
سعيد جودة السحار وشركاه